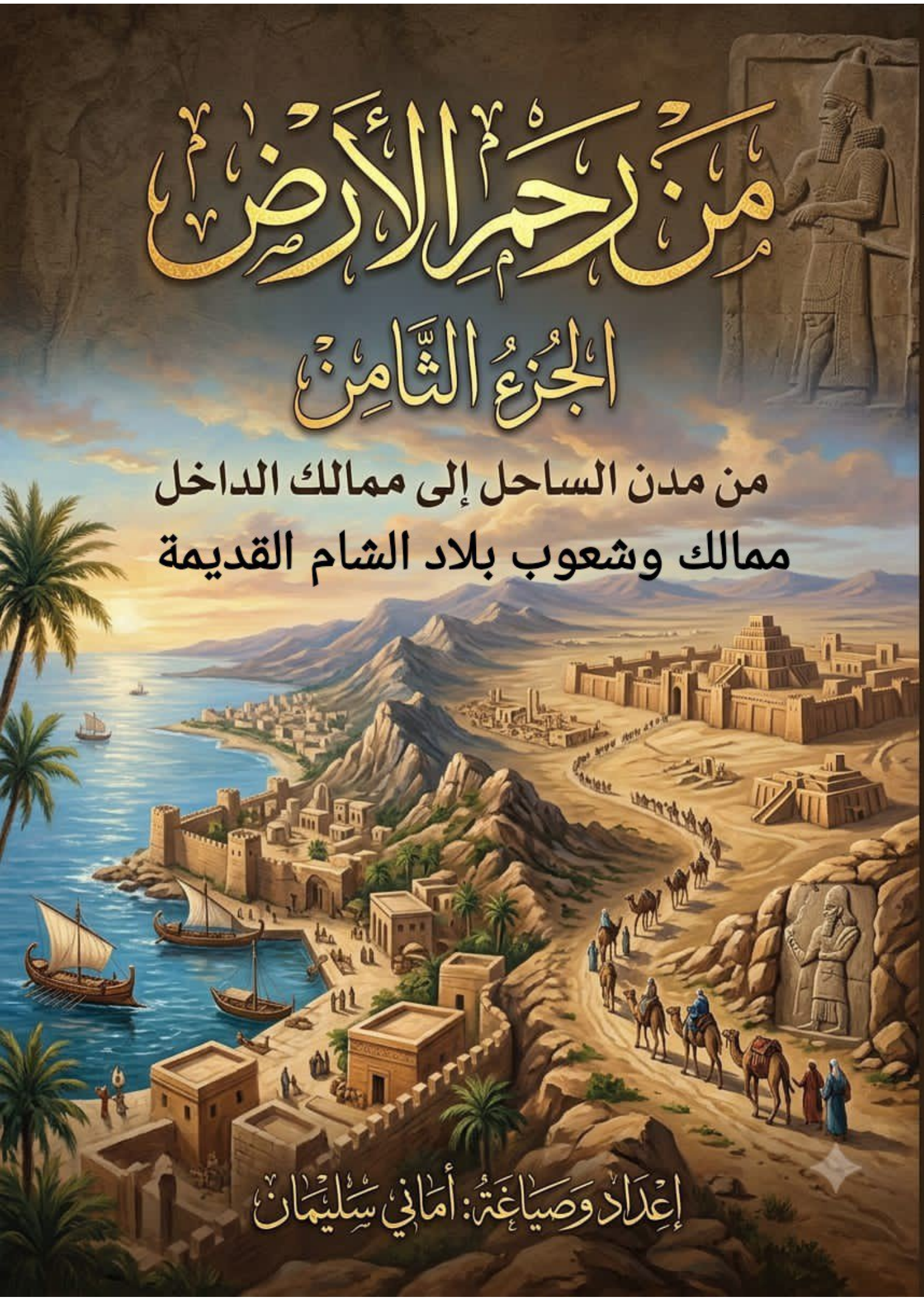
من رحم الأرض
الجزء الثامن
من مدن الساحل إلى ممالك الداخل
ممالك وشعوب بلاد الشام القديمة
إعداد وصياغة: أماني سليمان
من رحم الأرض
من مدن الساحل إلى ممالك الداخل
سورة

من رحم الأرض

الجزء الثامن

ممالك وشعوب بلاد الشام القديمة

من المدن الساحلية إلى ممالك الداخل

إعداد وصياغة

أماني سليمان

هنا تبدأ حكايات المدن التي لم تكن يومًا هامشًا
والممالك التي صغر اسمها ولم يصغر أثرها

مقدمة

ماذا لو كانت بلاد الشام القديمة أكثر ازدحامًا بالممالك مما تخبرنا به كتب التاريخ؟

خلف أسماء العواصم الكبرى التي اعتدنا سماعها، كانت هناك مدن صغيرة وممالك حدودية وشعوب تحركت بين الساحل والجبل والسهل والوادي، تحالفت حينًا، وتحاربت حينًا آخر، وغيّرت ولاءاتها كلما تغير ميزان القوة. بعضها ترك لنا نقوشًا تتحدث بصوت ملوكها، وبعضها لم يبقَ منه سوى اسم عابر في سجل ملكي أو أثر حجري مدفون تحت طبقات الأرض.

في هذا الجزء نفتح الباب أمام تلك الأسماء التي كثيرًا ما تمرّ سريعًا في المصادر، لنضعها في أماكنها ونستعيد قصصها من مدن الساحل التي ازدهرت على طرق البحر، إلى ممالك فلسطين ومرتفعاتها، ومن كيانات شرق الأردن إلى المراكز الآرامية التي وقفت بين القوى الكبرى في المنطقة.

قد تبدو بعض هذه الممالك صغيرة إذا قورنت بالإمبراطوريات التي أحاطت بها، لكنها لم تكن هامشية في عالمها. كانت تتحكم بطرق، وتحرس ممرات، وتملك موانئ، وتفرض نفوذها على مناطق زراعية وتجارية، وتدخل في تحالفات وحروب قد تغيّر مصير مدن بأكملها.

وهنا تبدأ رحلتنا؛ لا بين الإمبراطوريات وحدها، بل بين الأسماء التي بقيت، والأحجار التي صمدت، والمدن التي اختفت، والممالك التي تركت أثرها ثم ابتلعتها الأرض.

إنها بلاد الشام كما كانت ذات يوم عالمًا من الممالك المتجاورة، لا عالمًا من الممالك الكبرى فقط.

طرابلس (تريبوليس)

كانت طرابلس، المعروفة في المصادر الفينيقية واليونانية باسم تريبوليس (Tripolis)، من أبرز المراكز السياسية التي ظهرت على الساحل الفينيقي خلال الألف الأول قبل الميلاد. ويشير اسمها اليوناني إلى المدن الثلاث، وهو ما ارتبط بتكوينها من ثلاثة أحياء أو مراكز تمثل المدن الفينيقية الكبرى صور وصيدا وأرواد. ولهذا لم تكن طرابلس في بدايتها مملكة مستقلة بالمعنى الذي كانت عليه صور أو صيدا، بل كانت مركزًا سياسيًا أنشأته المدن الفينيقية لتكون نقطة تجمع وتمثيل مشترك لها.

يقع موقع طرابلس على الساحل الشمالي للبنان، في منطقة كانت تتصل بطرق الساحل من جهة وبالداخل السوري من جهة أخرى. وهذا الموقع جعلها مناسبة لتكون مركزًا للتبادل والاجتماعات السياسية بين القوى الفينيقية، ولا سيما في فترة أصبحت فيها المدن الساحلية بحاجة إلى تنسيق مواقفها أمام الإمبراطوريات الكبرى التي سيطرت على بلاد الشام.

برزت أهمية طرابلس بصورة أوضح في العصر الفارسي الأخميني. فقد أصبحت المدينة مركزًا سياسيًا للفينيقيين، وارتبطت بالمجالس والاجتماعات التي شاركت فيها المدن الساحلية. وفيها اجتمع ممثلو المدن الفينيقية في مراحل مختلفة لمناقشة المواقف السياسية والعسكرية، خصوصًا في مواجهة القوى الإقليمية الكبرى. ولذلك كانت طرابلس مركزًا سياسيًا أكثر منها مملكة ذات سلالة ملكية مستقلة.

وعندما وصل الإسكندر المقدوني إلى الساحل الفينيقي سنة ٣٣٢ ق.م. دخلت طرابلس ضمن المدن التي خضعت له، ثم أصبحت بعد وفاته جزءًا من

الصراع بين خلفائه. وانتقلت بين النفوذ البطلمي والسلوقي بحسب تغير ميزان القوى في سورية وفينيقيا، كما حدث لمعظم المدن الساحلية.

وفي العصر الروماني استمرت طرابلس كمدينة ساحلية مهمة، ثم تطورت مؤسساتها وعمرانها ضمن النظام الروماني. وهكذا لا يصح وضع طرابلس في القائمة بوصفها مملكة فينيقية مستقلة مثل صيدا وصور؛ والأدق وصفها بأنها مدينة - مركز سياسي فينيقي نشأت لتجمع نفوذ ثلاث قوى فينيقية كبرى، ثم أصبحت لاحقًا مدينة مستقلة في مراحل تاريخية مختلفة.

وتكمن أهميتها في تاريخ بلاد الشام في دورها كحلقة وصل بين الساحل الفينيقي وشمال سورية، وفي كونها مثالًا على قدرة المدن الفينيقية على إنشاء مراكز سياسية مشتركة عندما فرضت الظروف الإقليمية عليها التعاون بدل المنافسة وحدها.

عمريت

تقع عمريت على الساحل السوري إلى الجنوب من طرطوس، وكانت في العصور الفينيقية تعرف باسم ماراثوس أو ماراثا. وعلى الرغم من أن اسمها قد يظهر أحيانًا في القوائم إلى جانب المدن والممالك الساحلية، فإنها لم تكن مملكة مستقلة بالمعنى نفسه الذي كانت عليه صور أو صيدا؛ فقد نشأت في المجال السياسي لمدينة أرواد، الواقعة على الجزيرة المقابلة للساحل، وكانت عمريت بمثابة القاعدة البرية الأساسية للأروادیين. ومن هنا جاءت أهميتها؛ فأرواد، بحكم وجودها الجزيري، احتاجت إلى مركز على البر تتعامل من خلاله مع الداخل، ووجدت في عمريت موقعًا مناسبًا لذلك، حتى أصبحت المدينة واحدة من أهم مراكز نفوذ أرواد على الساحل.

ولم تكن عمريت مجرد مدينة ساحلية صغيرة، فقد كشفت آثارها عن تاريخ طويل يمتد إلى عصور أقدم من ازدهارها الفينيقي، إذ ظهرت في موقعها دلائل على استيطان يعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، ثم شهدت المنطقة مراحل متعاقبة من التطور حتى أصبحت في العصر الفينيقي جزءًا من المجال السياسي لأرواد.

لم تكن عمريت مجرد مرفأ؛ فقد تطورت فيها مدينة كاملة ذات أحياء سكنية ومنشآت دينية ومقابر ومرافق مائية. وكان للماء حضور واضح في تخطيطها الديني، إذ ارتبطت المدينة بنهري عمريت والقبلي، وأقيمت حول مواقع المياه منشآت مرتبطة بالطقوس والمقدسات.

وتتميز عمريت قبل كل شيء بمجمعها المقدس المعروف باسم المعبد، وهو من أكثر المنشآت الدينية تميزًا في الساحل الفينيقي. فقد نُحت جزء كبير منه

في الصخر، ويتوسطه حوض واسع للماء تحيط به العناصر المعمارية للمجمع، بينما يقوم في وسطه بناء مقدس أو ناووس. ويكشف هذا التصميم عن مكان كانت للماء فيه أهمية دينية واضحة، ولذلك ارتبط الموقع بطقوس العبادة والشفاء. وقد عُثر في عمريت على نقوش ولقى تحمل أسماء آلهة، من بينها إشمون وملقرت وشدرفا، وإن كانت طبيعة ارتباط كل إله بالمعبد ومراحل عبادته تحتاج إلى التمييز بحسب العصر والدليل الأثري.

ولم تقتصر أهمية عمريت على معابدها، فقد اشتهرت بمقابرها الضخمة، ولا سيما المقابر البرجية المعروفة باسم المغازل، وهي منشآت جنائزية مميزة تتكون من غرف دفن تعلوها أبراج أو عناصر حجرية شاهقة، وتكشف عن مكانة اجتماعية رفيعة لأصحابها وعن تقاليد جنائزية خاصة بالمنطقة. وإلى جانب المقابر، كشفت الآثار عن منشآت سكنية ومناطق عمل وميناء، مما يدل على أن عمريت كانت مدينة حقيقية ذات نشاط متنوع، لا مجرد مركز ديني.

ومن أكثر منشآت عمريت إثارة للاهتمام ملعبها الضخم، الذي يمتد لمسافة تقارب ٢٣٠ مترًا، وهو شاهد على أن الحياة في المدينة لم تكن مرتبطة بالعبادة والتجارة وحدهما، بل عرفت أيضًا منشآت مرتبطة بالنشاط الرياضي والاجتماعي. ويمنح وجود هذا الملعب، إلى جانب المعبد والمقابر، صورة مختلفة عن المدينة الفينيقية التقليدية، ويكشف عن مجتمع امتلك القدرة على إنشاء منشآت ضخمة ومتنوعة.

ومع أن عمريت احتفظت بشخصيتها ومكانتها، فإنها لم تكن في العصر الفينيقي المتأخر مملكة مستقلة عن أرواد، بل كانت جزءًا من أراضيها على البر السوري المقابل للجزيرة.

وكانت علاقة عمريت بأرواد ذات أثر مباشر في تاريخها السياسي. فقد أصبحت المدينة قاعدة أروادية على البر، وفي الوقت نفسه استفادت من موقعها الخاص على طرق الساحل، فازدهرت التجارة والحياة الحضرية فيها. وعندما وصلت جيوش الإسكندر المقدوني إلى الساحل الفينيقي سنة ٣٣٣ ق.م. خضعت عمريت مع أرواد للسلطة المقدونية، ثم دخلت العصر الهلنستي. وفي ظل الحكم السلوقي ازدادت أهميتها الاقتصادية، وتشير الأدلة إلى أنها بلغت في مرحلة من القرن الثالث قبل الميلاد ازدهارًا جعلها منافسًا حقيقيًا لأرواد نفسها، بدل أن تبقى مجرد تابع صغير للجزيرة.

وفي ٢١٩ ق.م. حصلت عمريت على استقلالها عن أرواد، لتدخل مرحلة قصيرة من الاستقلال السياسي. لكن هذا الوضع لم يستمر؛ ففي ١٤٨ ق.م. هاجمتها أرواد ودمرتها، وبعد ذلك تراجعت الحياة فيها بصورة كبيرة. وعندما وصفها الجغرافي سترابون في العصر الروماني كانت المدينة قد تحولت إلى أطلال. ومن المفارقات أن هذا الخراب، كان سببًا في حفظ جانب كبير من آثارها؛ إذ لم تستمر فوقها مدينة كبيرة تعيد البناء فوق المنشآت القديمة، ولذلك بقيت المعابد والمدافن والمنشآت المائية شاهدة على مدينة ساحلية كان تاريخها مرتبطًا بأرواد، ثم حاولت لفترة قصيرة أن تستقل عنها قبل أن تنتهي على يدها.

بيروت القديمة بيريتوس

كانت بيروت القديمة، التي عُرفت في المصادر القديمة باسم بيروتا/بيريتوس (Berytus)، من المدن الكنعانية القديمة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. وتظهر في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كما تظهر في نصوص أوغاريت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وهو ما يؤكد وجودها بوصفها مركزًا حضريًا قائمًا في العصر البرونزي. وتشير الأدلة إلى أنها كانت في تلك المرحلة مرتبطة بالمجال السياسي لمدينة جبيل، ولم تكن قوة مستقلة تضاهي صور أو صيدا، لكنها كانت ميناءً ومركزًا تجاريًا مهمًا ضمن شبكة المدن الساحلية.

ويكشف موقع بيروت الأثري القديم عن استمرار الحياة في المدينة عبر مراحل متعددة. فقد عُثر على بقايا استيطان من العصر البرونزي وعلى تحصينات ومرفأ قديم، وهو ما يدل على أن الموقع لم يكن مجرد محطة تجارية عابرة. وكان المرفأ يوفر للمدينة اتصالًا مباشرًا بالبحر، بينما سمح موقعها بين الساحل وجبل لبنان بالارتباط بالطرق المؤدية إلى الداخل. ومن خلال هذه الشبكة شاركت بيروت في التجارة الساحلية وفي تبادل المنتجات بين المدن الفينيقية والمناطق الداخلية.

خلال العصر الحديدي استمرت بيروت ضمن البيئة السياسية الفينيقية، لكن المصادر المتاحة عنها أقل ثراءً من المصادر الخاصة بصور وصيدا. ولهذا لا نستطيع أن ننسب إليها سلسلة واضحة من الملوك أو أن نقدمها على أنها مملكة فينيقية مستقلة. وكانت هذه نقطة مهمة في تاريخها؛ فقد ظلت مدينة ذات وزن محلي وتجاري، لكنها لم تتحول إلى قوة سياسية كبرى تسيطر على مدن أخرى. وفي الفترات الفارسية والهلنستية استمرت الحياة فيها، ودخلت

ضمن التغيرات السياسية التي شهدها الساحل بعد سقوط الإمبراطوريات القديمة.

وفي العصر الهلنستي تغير اسم المدينة رسميًا في إحدى المراحل إلى لاودكية فينيقيا، واستُخدم الاسم اليوناني إلى جانب الاسم المحلي. ثم أعيد بناء المدينة في القرن الثاني قبل الميلاد، وتظهر الآثار الهلنستية وجود تحصينات ومنشآت جديدة فوق المدينة الأقدم. وفي هذه المرحلة أصبحت بيروت جزءًا من العالم الهلنستي، وتحولت تدريجيًا من مدينة فينيقية تقليدية إلى مدينة تتأثر بالمؤسسات واللغة والثقافة اليونانية.

وفي ٦٤ ق.م. دخلت بيروت في الحكم الروماني بعد حملة بومبي في سورية، وعادت إلى استخدام اسم بيريتوس. لكن التحول الأكبر جاء في عهد أغسطس؛ ففي أواخر القرن الأول قبل الميلاد أصبحت المدينة مستعمرة رومانية، واستقر فيها قدامى المحاربين من الفيلق الخامس المقدوني والفيلق الثالث الغالي. ومنحتها روما حقوقًا وامتيازات واسعة، وأصبح اسمها الرسمي Colonia Iulia Augusta Felix Berytus. وكان لهذا الاستيطان أثر عميق في تكوين المدينة، إذ ازدادت عملية الرومنة وأقيمت فيها المباني العامة والحمامات والمعابد والشوارع والمنشآت التي جعلتها واحدة من أهم المدن الرومانية في الساحل الشرقي للمتوسط.

لم تقتصر أهمية بيريتوس في العصر الروماني على التجارة والعمران. فقد حصلت المدينة على إقليم واسع امتد إلى الداخل، ووصل في عهد الإمبراطور كلوديوس إلى مناطق من سهل البقاع، حتى ارتبط نفوذها بـهليوبوليس/بعلبك ومصادر نهر العاصي. وكان هذا الامتداد الزراعي والاقتصادي جزءًا من قوة المستعمرة الرومانية، التي لم تعد مدينة ساحلية فقط، وإنما أصبحت مركزًا

إداريًا يسيطر على مساحة واسعة من المناطق المحيطة. وتوضح النقوش المكتشفة في بيروت والمناطق التابعة لها اتساع الإدارة الرومانية ونشاطها في هذه المنطقة.

ثم اكتسبت بيروت شهرة لا علاقة لها بالتجارة أو الجيوش، عندما أصبحت مقرًا لإحدى أشهر مدارس القانون الروماني في العالم القديم. وازدهرت المدرسة بصورة خاصة منذ أواخر القرن الثالث الميلادي، ودرس فيها عدد من كبار رجال القانون، ومن أشهر المرتبطين بها بابينيان وأولبيان، اللذان أصبحا من أهم الأسماء في الفقه القانوني الروماني. وفي القرن السادس اعترف الإمبراطور جستنيان بمدرسة بيروت واحدة من مدارس القانون الرسمية الكبرى في الإمبراطورية، وأسهم علماء القانون المرتبطون بها في التقليد الذي أدى إلى صياغة أجزاء مهمة من مجموعة القوانين الجستنيانية.

وبذلك دخلت بيريتوس مرحلة جديدة أصبحت فيها مركزًا علميًا وقانونيًا إلى جانب دورها الاقتصادي. واستمرت المدينة في العصر المسيحي، وأصبحت لها مؤسسات كنسية ومجتمع مسيحي مزدهر. لكن هذا الازدهار تعرض لضربة قاسية في زلزال سنة ٥٥١م، الذي ألحق دمارًا واسعًا بالمدينة والساحل، ثم جاءت موجات البحر التي زادت من حجم الكارثة. وبعد الزلزال لم تستعد بيريتوس مكانتها السابقة بالكامل، وانتقلت أجزاء من النشاط الإقليمي إلى مراكز أخرى.

وهكذا يختلف تاريخ بيروت القديمة عن تاريخ صيدا وصور؛ فهي لم تصبح مملكة بحرية كبرى، ولم تترك لنا سلالة ملكية طويلة مثل صيدا، لكنها حافظت على وجود حضري متصل عبر عصور متعددة، وانتقلت من بيروتا الكنعانية في العصر البرونزي إلى المدينة الفينيقية، ثم لاودكية الهلنستية، ثم

بيريتوس الرومانية التي أصبحت واحدة من أبرز مراكز القانون والثقافة الرومانية في الشرق. ولهذا فإن أهميتها في تاريخ بلاد الشام لا تأتي من كونها مملكة، بل من قدرتها على التحول مع كل إمبراطورية جديدة مع الحفاظ على دورها الحضري وموقعها التجاري.

صيدا

كانت صيدا واحدة من أقدم وأهم المدن الفينيقية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، وامتد تاريخها السياسي عبر مراحل طويلة سبقت ظهور الفينيقيين كقوة بحرية وتجارية معروفة في العصر الحديدي. يظهر اسمها في المصادر المصرية والوثائق الدبلوماسية من العصر البرونزي، ومن أشهر حكامها في تلك المرحلة زِمريدا، الذي ظهر في رسائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وتكشف هذه الرسائل أن صيدا كانت مدينة ذات حاكم محلي وعلاقات مباشرة مع مصر، وأنها كانت جزءًا من شبكة المدن الساحلية التي تنافست على النفوذ تحت المظلة المصرية.

بعد انهيار النظام السياسي في نهاية العصر البرونزي تغيرت موازين القوى على الساحل، وبرزت صيدا ضمن المدن الفينيقية التي استطاعت الحفاظ على قدر كبير من الاستقلال السياسي. ولم تكن فينيقيا دولة موحدة، بل مجموعة من المدن ذات الملوك والمجالس والمؤسسات الخاصة بكل مدينة، ولذلك تطور تاريخ صيدا بصورة مستقلة عن صور وجبيل وأرواد، رغم اشتراكها معها في اللغة والثقافة والدين والنشاط البحري. وفي المراحل المبكرة كانت صيدا من القوى الرئيسية على الساحل، وسيطرت في فترات مختلفة على عدد من المرافئ والمناطق التابعة لها، ومنها دور وسَرَفَند، بينما كانت صور تنافسها تدريجيًا على السيطرة التجارية والسياسية.

دخلت صيدا خلال العصر الآشوري في علاقة مع الإمبراطورية الآشورية التي بدأت توسعها نحو الساحل الفينيقي. ومن أبرز ملوكها المعروفين في هذه المرحلة عبد ملكوتي (Abdi-Milkutti)، الذي حكم في القرن السابع قبل الميلاد وتمرد على الملك الآشوري آسرحدون نحو ٦٧٧ق.م. كان التمرد محاولة لاستعادة استقلال المدينة، لكن آسرحدون تحرك ضدها، فحاصر صيدا واستولى عليها، ثم دمر جزءًا كبيرًا منها وأعاد تنظيمها، ونُفي ملكها وقُتل بعد أسره. وبعد ذلك أعاد الآشوريون ترتيب المنطقة بما يخدم سيطرتهم على الساحل، وأصبحت صيدا جزءًا من النظام السياسي الآشوري.

ومع سقوط الإمبراطورية الآشورية وانتقال السيطرة إلى البابليين ثم الفرس الأخمينيين، دخلت صيدا مرحلة جديدة. فقد احتفظت المدينة بملكها المحلي، لكنها أصبحت تابعة للإمبراطورية الفارسية. وكانت هذه المرحلة من أكثر الفترات التي نعرف عنها تفاصيل، بفضل النقوش والقبور والعملات. ومن أشهر ملوكها إشمون عازر الثاني وتبنيت وبودعشتارت، وقد تركت أسرهم الملكية آثارًا مهمة تكشف عن طبيعة الحكم في صيدا وعلاقتها بالحكم الفارسي. وكان ملوك صيدا يحتفظون بقدر من السلطة المحلية، في الوقت الذي يقدمون فيه الولاء والخدمة للملك الفارسي. وتكشف المصادر عن الدور العسكري الذي أدته صيدا في الأسطول الفينيقي الذي اعتمدت عليه الدولة الأخمينية في حروبها البحرية.

ويعد إشمون عازر الثاني من أشهر ملوك صيدا بسبب قبره ونقشه الجنائزي، الذي يشكل واحدًا من أهم النصوص الفينيقية الملكية التي وصلت إلينا. ويذكر الملك في النقش نفسه وأسرته ومشروعاته، ويشير إلى امتيازات حصلت عليها صيدا من الملك الفارسي، من بينها السيطرة على مناطق ومصادر دخل مرتبطة بالمدينة. كما يرتبط اسمه بإعادة بناء معابد وتوسيع المنشآت

الدينية، وعلى رأسها عبادة إشمون، إله صيدا الرئيسي، الذي ارتبط بالشفاء والحماية. ويكشف هذا الإرث أن الملك لم يكن مجرد حاكم تابع للفرس، بل كان يستخدم سلطته المحلية لإعادة بناء المدينة ومؤسساتها الدينية وتأكيد مكانة أسرته.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد وصلت العلاقة بين صيدا وفارس إلى أزمة حادة. فقد اندلعت الثورة الصيدونية ضد الفرس سنة ٣٥١- ٣٤٤ ق.م. تقريبًا بقيادة الملك تبنيت الثاني، المعروف عند اليونان باسم تينيس. حاول تينيس الاستعانة بالقوات اليونانية لمواجهة الحكم الأخميني، لكن الملك الفارسي أرتحشستا الثالث شن حملة ضخمة لقمع الثورة. وعندما أدرك تينيس أن ميزان القوى يميل لمصلحة الفرس، خان حلفاءه وسلّم معلومات عن دفاعات المدينة، لكن أهل صيدا اكتشفوا خيانته. وعندما أصبحت المدينة مهددة بالسقوط أحرق السكان سفنهم ومنازلهم، وفضل عدد كبير منهم الموت على الوقوع في الأسر. وكانت الكارثة من أعنف الأحداث في تاريخ صيدا القديم، وأدت إلى خسائر بشرية هائلة وتدمير جزء كبير من المدينة.

بعد هذه الكارثة أعيد بناء صيدا واستعادت جزءًا من نشاطها، لكنها لم تعد القوة الفينيقية التي كانت عليها قبل الثورة. وعندما وصل الإسكندر المقدوني إلى الساحل الفينيقي سنة ٣٣٣ ق.م. لم تقاوم صيدا مثلما فعلت صور، بل انضمت إلى الإسكندر وقدمت له الدعم في حملته ضد المدينة المنافسة. وبعد وفاة الإسكندر دخلت صيدا في الصراع بين خلفائه، فأصبحت تحت حكم البطالمة في بعض الفترات ثم انتقلت إلى الدولة السلوقية بعد انتصار أنطيوخوس الثالث على البطالمة سنة ١٩٨ ق.م. واستمرت المدينة في الاحتفاظ بقدر من مؤسساتها المحلية حتى وصول الرومان.

دخلت صيدا العصر الروماني وهي مدينة قديمة فقدت استقلالها الملكي، لكنها بقيت مركزًا اقتصاديًا وثقافيًا مهمًا. واستمرت فيها التقاليد الفينيقية إلى جانب التأثيرات اليونانية والرومانية، وتحولت تدريجيًا إلى مدينة متوسطية متعددة الثقافات. وبذلك انتهى تاريخ صيدا كمملكة مستقلة، لكن لم ينتهِ تاريخها؛ فقد انتقلت من مدينة كنعانية في العصر البرونزي، إلى مملكة فينيقية، ثم إلى دولة تابعة لآشور وفارس، وبعدها إلى مدينة هلنستية ورومانية، محتفظة طوال هذه التحولات بمكانتها كواحدة من أقدم مراكز الساحل الفينيقي.

صور

برزت صور بوصفها إحدى أقوى المدن الفينيقية وأكثرها قدرة على تحويل موقعها البحري إلى قوة سياسية وتجارية. وكانت المدينة في الأصل مؤلفة من مركزين، مستوطنة على الساحل وجزيرة قريبة منه، لكن الجزيرة أصبحت لاحقًا مركز القوة الحقيقي للمدينة، إذ وفرت لها حماية طبيعية صعبة الاختراق. ومنذ العصر البرونزي كانت صور جزءًا من شبكة المدن الكنعانية الساحلية، وتظهر في المصادر المصرية والشرق الأدنى القديم ضمن المدن التي ارتبطت بالمصريين وبالممالك المجاورة. وفي العصر الحديدي بدأت المدينة مرحلة توسع جعلتها تتفوق تدريجيًا على صيدا في التجارة البحرية والنفوذ الخارجي.

ارتبط صعود صور بشكل خاص بأسرتها الملكية في العصر الحديدي، ومن أشهر ملوكها حيرام الأول، الذي حكم في القرن العاشر قبل الميلاد تقريبًا. كان حيرام معاصرًا للملك الإسرائيلي داود ثم سليمان، وارتبط اسمه بعلاقات سياسية وتجارية وثيقة مع مملكة إسرائيل. وتذكر الروايات أن حيرام قدم الأخشاب والمواد والحرفيين للمساعدة في مشروعات البناء، بينما استفادت

صور من علاقاتها بالداخل السوري والفلسطيني ومن طرق التجارة التي تصل الساحل بالداخل. ولا ينبغي النظر إلى هذه العلاقة على أنها تحالف عسكري فقط؛ فقد كانت في جوهرها شبكة اقتصادية وسياسية استفادت منها صور في توسيع نفوذها.

وفي عهد حيرام وغيره من ملوك صور ازداد اعتماد المدينة على البحر. فأرسلت سفنها نحو قبرص وجزر بحر إيجة وشمال إفريقيا، وأقامت مستعمرات ومراكز تجارية في غرب البحر المتوسط. وكان أبرز امتداد لهذا النشاط تأسيس قرطاج، التي ارتبط تقليدها ببحارة ومستعمرين فينيقيين من صور في أواخر القرن التاسع أو أوائل القرن الثامن قبل الميلاد. ومع اتساع شبكة الموانئ والمراكز التجارية أصبحت صور أقل اعتمادًا على الأراضي الزراعية المباشرة وأكثر اعتمادًا على التجارة البحرية والصناعات الحرفية وتبادل المعادن والأخشاب والأصبغة والسلع الفاخرة.

أصبحت الأرجوانية واحدة من أشهر منتجات صور، وهي صبغة ثمينة استُخرجت من أنواع من أصداف الموركس، واستُخدمت في صناعة الملابس الفاخرة. ومن هنا ارتبط اسم المدينة في العالم القديم بالثروة والسلع الفاخرة. لكن قوة صور لم تكن تجارية فقط؛ فقد امتلكت أسطولًا قويًا جعلها قادرة على الحفاظ على استقلالها لفترات طويلة أمام القوى البرية الكبرى. وكانت طبيعة الجزيرة المحصنة تمنحها ميزة لم تكن متاحة للمدن الساحلية القائمة مباشرة على البر ومع توسع آشور نحو الساحل دخلت صور في علاقة معقدة معها. فقد قدمت الجزية في مراحل مختلفة، لكنها حافظت على قدر كبير من الاستقلال بسبب موقعها البحري. وكانت الإمبراطوريات الآشورية تعتمد على المدن الفينيقية في توفير السفن والبحارة، ولذلك لم يكن تدمير صور هدفًا سهلًا أو دائمًا. واستمر هذا النمط مع البابليين، حين حاول نبوخذنصر الثاني

إخضاع المدينة في حصار طويل خلال القرن السادس قبل الميلاد. استمر الحصار سنوات عديدة، لكن صور تمكنت من الحفاظ على استقلالها البحري، وانتهى الأمر بتسوية أبقت لها قدرًا من الحكم المحلي.

وفي العصر الفارسي أصبحت صور من أهم المدن البحرية التابعة للإمبراطورية الأخمينية. وكان الأسطول الفينيقي عنصرًا رئيسيًا في القوة البحرية الفارسية، لذلك احتفظت صور بأهمية كبيرة. ومع ذلك ظل التنافس بينها وبين صيدا قائمًا، وكان تغير موازين القوى بين المدينتين مرتبطًا بظروف الإمبراطورية التي تسيطر على الساحل. وعندما اندلعت الثورات الفينيقية ضد الفرس في القرن الرابع قبل الميلاد، ظهرت صيدا وصور ضمن المشهد السياسي المضطرب الذي سبق وصول الإسكندر.

كان أخطر امتحان في تاريخ صور هو حصار الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق.م. رفضت المدينة السماح للجيش المقدوني بدخولها، وكان موقعها الجزيري يجعل الاستيلاء عليها شديد الصعوبة. لذلك أنشأ الإسكندر رصيفًا ضخمًا من البر باتجاه الجزيرة، مستخدمًا الحجارة والأنقاض التي جُلبت من المدينة الساحلية القديمة، ثم بنى آلات حصار وسفنًا بمساعدة المدن الفينيقية التي خضعت له. وبعد حصار دام نحو سبعة أشهر تمكن المقدونيون من اختراق دفاعات المدينة، وسقطت صور. وكان سقوطها نقطة تحول في تاريخ الساحل الفينيقي؛ فقد انتهى استقلالها السياسي، وانتقلت المدينة إلى النظام الهلنستي الذي فرضته مملكة الإسكندر وخلفاؤه بعد وفاة الإسكندر أصبحت صور موضع تنافس بين خلفائه، ثم دخلت في الدولة السلوقية. واستمرت المدينة في أداء دور تجاري مهم، لكنها لم تستعد الاستقلال والقوة السياسية التي امتلكتها في العصر الفينيقي. وفي العصر الروماني بقيت صور مدينة مزدهرة، واستمرت تجارتها وصناعاتها البحرية، بينما أصبحت الثقافة

اليونانية ثم الرومانية أكثر حضورًا فيها. وهكذا انتقلت صور من مملكة فينيقية بحرية مستقلة إلى مدينة ضمن إمبراطوريات متعاقبة، لكنها حافظت على سمعتها التجارية حتى بعد زوال المملكة التي صنعت مجدها.

حاصور عاصمة الشمال الكنعاني

في أقصى شمال فلسطين، قرب بحيرة طبريا، ارتفعت حاصور، إحدى أعظم مدن كنعان في العصر البرونزي، ومركزًا سياسيًا وتجاريًا تجاوز نفوذه حدود المنطقة المحيطة به. لم تكن حاصور مدينة صغيرة بين مدن كنعان، بل كانت مدينة واسعة تتكون من مدينة عليا وأخرى سفلى، وامتدت المستوطنة الكبرى على مساحة تقارب مئتي فدان، وهو ما يفسر المكانة الاستثنائية التي احتلتها في السجلات القديمة. وتشير أقدم الشواهد الخارجية إلى ظهور اسمها في نصوص اللعن المصرية في القرن التاسع عشر قبل الميلاد،

(كان المصريون القدماء يكتبون أسماء أعدائهم أو المدن والكيانات التي يعتبرونها خصوماً على أوعية فخارية أو تماثيل صغيرة ثم يقومون بكسرها أو تحطيمها ضمن طقس سحري بهدف إلحاق الهزيمة بالعدو وإخضاعه)

ثم تظهر بصورة أوضح في وثائق ماري في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، حيث كانت حاصور الموقع الكنعاني الوحيد المعروف حتى الآن الذي يرد اسمه في أرشيف ماري. وتكشف هذه الوثائق عن علاقات تجارية بعيدة المدى، ربطت حاصور بماري ومدن أخرى في سورية، وأظهرت أنها كانت جزءًا من شبكة اقتصادية امتدت عبر بلاد الشام وبلاد الرافدين.

وتظهر أهمية حاصور أيضًا في علاقتها بمصر. فقد ورد اسمها في سجلات الحملات المصرية في القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، كما

ظهرت في رسائل تل العمارنة، مما يدل على استمرار حضورها في المشهد السياسي الكنعاني خلال العصر البرونزي المتأخر. ولم تكن حاصور معزولة عن العالم السوري؛ فطبيعة عمارتها وبعض منشآتها الملكية والدينية تحمل صلات واضحة بتقاليد شمال بلاد الشام، حتى إن بعض مبانيها قورنت بمجمعات ملكية معروفة في ألالاخ (ألالة). وهكذا كانت حاصور نقطة التقاء بين عالم كنعان في الجنوب والعالم السوري في الشمال.

ولم تكن قوة حاصور سياسية واقتصادية فحسب، بل امتلكت حياة دينية غنية تركت آثارًا مادية واضحة. فقد كشفت التنقيبات عن عدد من المعابد والمواقع الطقسية، من بينها المعبد الطويل والمعبد الجنوبي، كما ظهر مجمع ديني ضخم عرف باسم المقدس الملكي. وفي أحد المعابد عُثر على حفرة طقسية عميقة احتوت عظامًا ورمادًا وعددًا كبيرًا من الأواني، من بينها مباخر وأوعية قرابين ونذور، في حين كشفت ساحات مجاورة عن بقايا عظام حيوانات وفخار مكسور، وهي شواهد تتوافق مع إقامة القرابين والولائم الطقسية. كما عُثر على مسلات وتماثيل وأشكال مرتبطة بالعبادة، من بينها تماثيل لآلهة كنعانية وتماثيل لثيران، مما يكشف عن عالم ديني لم يكن منفصلًا عن تقاليد سورية وكنعانية أوسع.

وكانت العمارة الملكية في حاصور تحمل هي الأخرى طابعًا مميزًا. فقد عُثر في المدينة العليا على مبنى ضخم كان يُفسر في السابق على أنه قصر كنعاني، ثم أعادت الدراسات الحديثة مناقشة وظيفته، ورأت أن بعض أجزائه قد تكون ذات طبيعة دينية واحتفالية. وقد كشفت المنطقة عن تماثيل حجرية وبرونزية، وأسلحة، وحلي، وأعمال فنية من العظم والعاج، إلى جانب أوانٍ ضخمة ربما استخدمت في تخزين الزيت، ومئات الأوعية التي يُحتمل أنها استُخدمت في الولائم العامة. وفي مدخل المجمع عُثر كذلك على جزء من

نقش مصري بالهيروغليفية يحمل لقب شخصية مصرية رفيعة، وربما كان صاحب المنصب قريبًا من بلاط رمسيس الثاني، إضافة إلى جزء من وعاء حجري يحمل كتابة مسمارية تتحدث عن تكريس حوض أو إناء لإله مجهول.

أما أكثر ما يكشف عن مكانة حاصور الثقافية فهو الكتابة. فقد عُثر في المدينة على عدد كبير من الألواح والقطع المسمارية، بعضها من العصر البرونزي الأوسط وبعضها من العصر البرونزي المتأخر. وتتنوع موضوعاتها بين الوثائق القانونية والاقتصادية والنصوص التعليمية والنصوص الدينية، وعُثر من بينها على قطعة مرتبطة بتمرين مدرسي، وأخرى تتصل بعلم الحساب، كما ظهرت نصوص أكدية في سياقات مختلفة. ويشير وجود مثل هذه النصوص إلى أن حاصور لم تكن مجرد مدينة تستقبل البضائع، بل امتلكت تقليدًا كتابيًا وإداريًا، وربما مدرسة للكتبة. والأكثر إثارة أن الباحثين ما زالوا يبحثون عن الأرشيف الملكي الكبير الذي يُتوقع أن يكون قد احتوى مراسلات ووثائق الدولة، إذ لم يُعثر عليه حتى الآن رغم العثور على عدد من الألواح المتفرقة وفي نهاية العصر البرونزي وقعت الكارثة التي أنهت حاصور الكنعانية. فقد تعرضت المدينة إلى دمار عنيف مصحوب بحريق واسع، وظهرت في طبقاتها كميات كبيرة من الرماد والخشب المتفحم، وفي بعض المواضع كانت آثار الحريق شديدة إلى درجة تسببت في تشقق أحجار البازلت وتغير طبيعة الطوب. كما عُثر على تماثيل محطمة، الأمر الذي يشير إلى أن سقوط المدينة لم يكن مجرد هجر تدريجي، بل ارتبط بحدث عنيف ترك أثره في المدينة ومقدساتها. أما هوية القوة التي دمرت حاصور والتاريخ الدقيق للكارثة، فما زالا موضوع نقاش بين الباحثين، ولذلك ينبغي الفصل بين الدليل الأثري والرواية الواردة في النصوص الكتابية التي تنسب إحراق حاصور إلى الإسرائيليين ومع ذلك، لم تختفِ حاصور نهائيًا بعد سقوط

المدينة الكنعانية. فقد عاد الاستيطان إليها في العصر الحديدي، وأصبحت من جديد مركزًا مهمًا في المنطقة، وشهدت منشآتها مراحل بناء وتحصين متعاقبة. وهكذا تكشف حاصور عن تاريخ طويل جمع بين القوة السياسية والتجارة بعيدة المدى والكتابة والعبادة والعمارة، قبل أن تنتهي المدينة الكنعانية الكبرى في واحدة من أعنف نهايات مدن العصر البرونزي في بلاد الشام وفي العصر الحديدي أصبحت حاصور جزءًا من المملكة الإسرائيلية، وعادت إلى لعب دور إقليمي مهم. وتنسب الرواية التوراتية إلى سليمان أعمال تحصين في حاصور إلى جانب مجدو وجازر، وقد كشفت الحفريات فعلًا عن منشآت ضخمة في المدينة تعود إلى مراحل مختلفة من العصر الحديدي. وتظل مسألة نسبة بعض هذه المنشآت إلى سليمان موضع نقاش أثري، لكن المؤكد أن حاصور كانت مركزًا محصنًا مهمًا في المملكة الإسرائيلية.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد وقعت حاصور تحت ضغط الإمبراطورية الآشورية. ومع حملات تغلاث فلاسر الثالث على مملكة إسرائيل سنة ٧٣٢ ق.م. تقريبًا، دُمّرت المدينة وسقطت ضمن المناطق التي ضمتها آشور. وكان ذلك نهاية المرحلة الكبرى من تاريخ حاصور بوصفها مركزًا سياسيًا إقليميًا. وعلى الرغم من استمرار النشاط السكاني في المنطقة، لم تستعد المدينة المكانة التي كانت لها في العصر البرونزي وتكمن أهمية حاصور في أنها تمثل بوضوح الصلة بين كنعان وشمال بلاد الشام؛ فهي لم تكن مجرد مدينة محلية، بل مملكة اتصلت بالمراكز السورية ومصر وبلاد الرافدين، واستفادت من موقعها لتصبح واحدة من أكبر القوى في شمال كنعان. ومن خلال آثارها يمكن تتبع انتقال المنطقة من عالم الممالك الكنعانية في العصر البرونزي إلى عصر الممالك الإسرائيلية ثم السيطرة الآشورية.

مجدو مدينة الطريق والحصون والقصور

على السفوح الغربية لمرتفعات الجليل، عند ملتقى الطرق التي تصل مصر بسورية والأناضول، قامت مجدو، المدينة التي عُرفت في المصادر القديمة باسم Megiddo، والتي ارتبط موقعها الاستراتيجي بتاريخ بلاد الشام منذ أقدم العصور. ولم تكن أهمية مجدو ناتجة عن كبرها وحده، بل عن موقعها عند ممر حيوي يعبر مرج ابن عامر، جعل السيطرة عليها تعني السيطرة على أحد أهم الطرق البرية بين الجنوب والشمال. ولهذا تعاقبت على تل مجدو مدن كثيرة فوق بعضها، وكشفت التنقيبات عن نحو عشرين مستوى رئيسيًا من الاستيطان امتدت من أواخر الألف السادس قبل الميلاد حتى القرون الأخيرة قبل هجر الموقع. وكل طبقة من هذه الطبقات تحمل صورة مختلفة لمدينة تغيّرت عمارتها ووظيفتها وقواها السياسية مع تغير العصور.

ومن أقدم ما يلفت النظر في مجدو مجمّعها الديني. فقد ظهرت في المدينة معابد متعاقبة، بعضها بُني فوق منشآت دينية أقدم، وهو ما يكشف استمرار النشاط الطقسي عبر قرون طويلة. ومن أبرز المنشآت المبكرة معبد مستطيل ذي مدخل واضح ومذبح أمامه، ثم ظهرت في مراحل لاحقة منشآت دينية أخرى، حتى أصبح الموقع شاهدًا على استمرارية العبادة وتطور العمارة الدينية في المدينة. كما عُثر في بعض المراحل على بقايا قرابين حيوانية، ما يوضح أن الطقوس لم تكن مجرد وجود لمبانٍ مقدسة، بل ارتبطت بممارسات فعلية داخل المدينة. وتعد اليونسكو مجمّع معابد مجدو من أبرز الأمثلة على استمرارية النشاط الديني في مدينة كنعانية عبر فترات طويلة.

أما المدينة الكنعانية فقد امتلكت تحصينات وبوابات ومنشآت ضخمة تكشف عن وجود سلطة مركزية قادرة على تنظيم العمل وتشييد المباني العامة. ومن

أبرز آثار العصر البرونزي بوابة المدينة وقصر كنعاني ضخم، عُثر فيه على غرف مرتبة حول فناء مركزي، وهو نمط يعكس طبيعة العمارة الملكية في مدن بلاد الشام. ولم تكن هذه الأبنية منفصلة عن الحياة السياسية؛ فالمدينة كانت تحتاج إلى مخازن ومقرات إدارية ومنشآت لخدمة الحاكم والجيش، ولذلك تظهر في مجدو العمارة الملكية والتحصينات ضمن منظومة عمرانية واحدة.

ويظهر اسمها في المصادر المصرية منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد، عندما شن الفرعون تحتمس الثالث حملته الكبرى على كنعان، وكانت مجدو في مقدمة المدن التي واجهته.

في سنة ١٤٥٧ ق.م. تقريبًا، وفق التأريخ التقليدي لمعركة مجدو، واجه تحتمس الثالث تحالفًا من أمراء كنعانيين قادهم حاكم قادش على العاصي، وانضم إليه عدد كبير من حكام مدن شمال ووسط كنعان. وكان اختيار مجدو مركزًا للمواجهة مرتبطًا بأهميتها الاستراتيجية، إذ كان سقوطها يفتح الطريق أمام الجيش المصري إلى مناطق واسعة من الشمال. ونجح الجيش المصري في الانتصار، ثم فرض حصارًا على المدينة استمر عدة أشهر قبل أن تستسلم. وسجل تحتمس الثالث تفاصيل الحملة على جدران معبد الكرنك، فأصبحت المعركة واحدة من أوضح الحملات العسكرية المعروفة من تاريخ كنعان في العصر البرونزي.

بعد خضوع مجدو لمصر لم تفقد أهميتها؛ بل أصبحت جزءًا من النظام المصري في كنعان، واحتفظت بمكانة إدارية وعسكرية مهمة. وتشير رسائل تل العمارنة إلى أن منطقة مجدو كانت لا تزال تحت حكم أمراء محليين يتعاملون مع السلطة المصرية. ويظهر اسم بيريديا، حاكم مجدو، في الرسائل

التي بعث بها إلى الفرعون، حيث اشتكى من أخطار تهدد سلطته وطلب المساعدة المصرية. وتكشف رسائله عن طبيعة الحكم في كنعان ملوك وأمراء محليون يتنافسون فيما بينهم، بينما تحاول مصر الحفاظ على سيطرتها من خلال الحاميات والتحالفات والولاء السياسي.

في أواخر العصر البرونزي تعرض النظام الذي حكم كنعان لهزة كبيرة، ومع انهيار النفوذ المصري المباشر تراجعت سلطة مجدو القديمة، لكن المدينة لم تختفِ. عادت إلى الظهور بقوة في العصر الحديدي، عندما أصبحت جزءًا من مملكة إسرائيل الشمالية. وتذكر الرواية التوراتية مجدو ضمن المدن التي ارتبطت بمشروعات الملك سليمان، رغم أن تفاصيل هذه الروايات وتاريخ بعض المنشآت ما زالت موضع نقاش بين الباحثين. وقد كشفت الحفريات عن بوابات ومنشآت عامة ومخازن وأنظمة مائية ضخمة تعكس استمرار أهمية الموقع.

بلغت مجدو مرحلة جديدة عندما أصبحت جزءًا من المملكة الإسرائيلية، ثم وقعت ضمن الصراع بين إسرائيل وآشور. وفي أواخر القرن السابع قبل الميلاد أصبحت المنطقة مسرحًا لمواجهة كبيرة عندما جاء يوشيا ملك يهوذا لمواجهة الجيش المصري بقيادة الفرعون نخاو الثاني. وقعت المعركة عند مجدو سنة ٦٠٩ ق.م. تقريبًا، وقُتل يوشيا، وكانت وفاته نقطة تحول مهمة في تاريخ يهوذا والمنطقة كلها، لأن مصر كانت تحاول الوصول إلى الشمال لمساندة القوى المتراجعة أمام التوسع البابلي.

ومع انتقال المنطقة إلى العصر الحديدي تغير وجه مجدو مرة أخرى. فقد أصبحت مركزًا مهمًا في مملكة إسرائيل الشمالية، وظهرت فيها قصور ومنشآت إدارية وتحصينات ضخمة. ومن أكثر المنشآت شهرة البوابة ذات

الحجرات المتعددة، التي كان المرور إليها يتم عبر ممر تحيط به غرف جانبية، وهي بنية خدمت أغراض الحماية والمراقبة وتنظيم الدخول إلى المدينة. كما ظهرت مبانٍ ذات جدران قوية ومخازن ومنشآت مرتبطة بالإدارة والجيش، إلى جانب المباني ذات الأعمدة التي عُرفت طويلًا باسم الإسطبلات. وقد أعادت الدراسات الحديثة بحث وظيفة هذه المباني، إلا أن الأبحاث المنشورة حديثًا تدعم استخدامها بوصفها منشآت مرتبطة بتربية الخيول وتدريبها في القرن الثامن قبل الميلاد، وهو ما يجعل مجدو مركزًا مهمًا لصناعة الخيل الحربية في المملكة الشمالية وكانت الخيول والعربات الحربية جزءًا مهمًا من صورة مجدو في العصر الحديدي. فقد عُثر على منشآت طويلة مقسمة إلى أروقة، وعلى أحواض ومعالف وحجرات مرتبطة بها، وتُشير دراسة حديثة إلى أن مجمعات هذه المنشآت في القرن الثامن قبل الميلاد تمثل صناعة متطورة لتربية الخيول وتدريبها لتكون حيوانات حرب. وهذا يعطي معنى أكثر تحديدًا لعبارة مدينة العربات التي ارتبطت بمجدو؛ فلم تكن مجرد تسمية أدبية، بل ارتبطت ببنية اقتصادية وعسكرية احتاجت إلى منشآت متخصصة وعدد كبير من الخيول.

لكن أكثر ما يكشف عن قدرة سكان مجدو الهندسية هو نظام المياه. كان مصدر الماء يقع خارج التحصينات، ولذلك كان الوصول إليه أثناء الحصار يمثل خطرًا على المدينة. فحُفر داخل المدينة بئر رأسي عميق يصل إلى نحو خمسة وعشرين مترًا، ثم شُق نفق أفقي في الصخر يبلغ نحو ثمانين مترًا للوصول إلى مصدر المياه من داخل المنطقة المحصنة. وبهذه الطريقة استطاع سكان المدينة الوصول إلى الماء دون الاضطرار إلى الخروج من الأسوار، بينما أُخفي مدخل النبع وحُمي بجدار سميك. لم يكن هذا مجرد بئر،

بل مشروعًا هندسيًا احتاج إلى تخطيط دقيق وحفر ضخم في الصخر، ويُعد من أبرز أنظمة المياه تحت الأرض في مدن العصر الحديدي في بلاد الشام.

وتكشف طبقات مجدو أيضًا عن تاريخ مليء بالحرائق والدمار وإعادة البناء. فقد تعرضت المدينة أكثر من مرة إلى كوارث عنيفة، ثم عادت إلى الحياة فوق أنقاضها. ومن الأحداث المهمة تدمير مدينة العصر الحديدي الأول في بدايات القرن العاشر قبل الميلاد، وهو حدث أحدث قطيعة واضحة مع التطور الثقافي الطويل للعصرين البرونزي الأوسط والمتأخر، ولا يزال الباحثون يناقشون أسبابه والظروف السياسية التي أحاطت به. كما شهدت مجدو تدميرات وإعادة بناء أخرى خلال العصر الحديدي، ولذلك لا يمكن اختزال تاريخها في معركة واحدة أو في سقوط واحد؛ فالتل نفسه يسجل تغير القوى التي سيطرت على المنطقة جيلاً بعد جيل.

ولم تتوقف قصة مجدو عند العصر الإسرائيلي. فقد أصبحت في مراحل لاحقة مركزًا إداريًا في ظل القوى الآشورية والفارسية، ثم انتقلت الحياة إلى المنطقة المحيطة بالتل في العصور الهلنستية والرومانية والبيزنطية والإسلامية، وتكشف الحفريات الحديثة حول مجدو عن تسلسل استيطاني امتد من العصر الهلنستي إلى العصور الرومانية والبيزنطية والإسلامية والمملوكية. وهكذا لا يمثل تل مجدو بقايا مدينة واحدة، بل سجلًا طويلًا لتاريخ مدينة كانت في كل مرحلة تعيد تشكيل نفسها وفق القوى والطرق والاقتصاد والظروف العسكرية المحيطة بها.

تعنك

كانت تعنك من المراكز الكنعانية القديمة في شمال فلسطين، وتقع في منطقة استراتيجية بالقرب من مجدو وعلى الطريق المؤدي من السهل الساحلي إلى المرتفعات. وقد منحها هذا الموقع دورًا عسكريًا وسياسيًا مهمًا، رغم أنها لم تصل إلى حجم مجدو أو حاصور.

ظهر اسم تعنك في المصادر المصرية القديمة، كما ظهرت ضمن شبكة المدن التي كانت تحت النفوذ المصري في العصر البرونزي المتأخر. وكانت المدينة تدار بواسطة حاكم محلي، وتكشف الوثائق المرتبطة بالمنطقة أن حكام المدن الكنعانية كانوا يتنافسون على الأراضي والطرق والموارد، بينما كانت مصر تحاول إبقاء المنطقة ضمن نفوذها.

ويكتسب موقع تعنك أهمية خاصة بسبب قربه من مجدو؛ فكل تغير في ميزان القوى حول مجدو كان ينعكس على تعنك. وكانت المدينة جزءًا من الممرات التي تتحرك عبرها الجيوش، ولذلك أصبحت عرضة للصراعات التي شهدها شمال ووسط كنعان.

في العصر الحديدي دخلت تعنك ضمن المجال السياسي لمملكة إسرائيل، واستمر موقعها في أداء دور محلي. وتشير آثار الموقع إلى وجود منشآت سكنية وإدارية تعكس استمرار التنظيم الحضري بعد نهاية العصر البرونزي. لكنها لم تصبح عاصمة لمملكة إقليمية مستقلة، بل كانت مركزًا محليًا داخل أنظمة سياسية أكبر.

ويعطي تاريخ تعنك صورة مهمة عن المدن التي كانت تعيش إلى جوار المراكز الكبرى؛ فهي لم تكن دولة عظمى، لكنها كانت ضرورية للحفاظ على

السيطرة على الطرق والأراضي الزراعية. ولهذا تظهر في التاريخ بصورة متقطعة، مرتبطة بموازين القوى بين مجدو والمراكز الأخرى في شمال فلسطين.

ومع انتقال المنطقة إلى السيطرة الآشورية في القرن الثامن قبل الميلاد فقدت تعنك استقلالها السياسي، مثل معظم مدن المملكة الإسرائيلية الشمالية. وأعيد تنظيم المنطقة ضمن الإمبراطورية الآشورية، بينما استمر الاستيطان في الموقع خلال مراحل لاحقة بدرجات مختلفة.

وهكذا تمثل تعنك مدينة- مركزًا كنعانيًا محليًا أكثر من كونها مملكة مستقلة، وتكمن أهميتها في موقعها الاستراتيجي وقربها من مجدو ودورها في شبكة المدن التي سيطرت على طرق شمال فلسطين.

أفيق

ظهر اسم أفيق في أكثر من موضع في بلاد الشام القديمة، ولذلك لا يمكن التعامل مع كل ذكر للاسم باعتباره مدينة واحدة. ومن أهم المواضع التي ارتبطت بهذا الاسم مركز يقع في منطقة سهل مرج ابن عامر وما حوله، ارتبط بالطرق التي تصل شمال فلسطين بوسطها. وقد جعل هذا الموقع أفيق جزءًا من شبكة المراكز التي تتحكم بالحركة بين الساحل والداخل.

تظهر أفيق في المصادر المصرية القديمة ضمن قائمة المدن الكنعانية التي ارتبطت بالنفوذ المصري، كما يرد اسمها في تقاليد تاريخية لاحقة مرتبطة بصراعات الممالك في المنطقة. وكان وجودها في منطقة مفتوحة نسبيًا يجعلها عرضة للحملات العسكرية، إذ تمر بالقرب منها طرق يمكن للجيوش استخدامها في الانتقال بين شمال فلسطين وساحل المتوسط.

وخلال العصر البرونزي كانت المدن الكنعانية تخضع بدرجات مختلفة للنفوذ المصري، وكان لكل مدينة حاكم محلي يدير شؤونها ويقدم الولاء والجزية للفرعون. ولا تتوفر لنا أدلة كافية تسمح بإعادة بناء مملكة مستقلة في أفيق ذات سلالة ملكية معروفة، ولذلك فالأدق وصفها بأنها مدينة أو مركز سياسي كنعاني محلي.

وفي العصر الحديدي دخلت المنطقة في نطاق الممالك الإسرائيلية، وأصبحت المراكز الواقعة حول أفيق مرتبطة بالصراع بين إسرائيل والكيانات الآرامية في الشمال. وتذكر الروايات القديمة مواقع باسم أفيق في سياق معارك بين الإسرائيليين والآراميين، لكن تعدد المواقع التي حملت الاسم يجعل تحديد كل حدث بموقع واحد أمرًا غير آمن.

وهذه النقطة مهمة عند إدخال أفيق في تاريخ بلاد الشام؛ فالاسم لم يكن حكرًا على مدينة واحدة، ولذلك ينبغي ذكر الموقع المقصود في كل مرة بدل جمع الأحداث المختلفة تحت اسم واحد.

استمرت أسماء أفيق في الظهور في الفترات اللاحقة، لكن المدينة لم تتحول إلى مملكة إقليمية كبرى مثل حاصور أو مجدو أو دمشق. وتكمن أهميتها في موقعها وفي كونها واحدة من المراكز التي ظهرت داخل شبكة المدن الكنعانية ثم انتقلت إلى أنظمة سياسية مختلفة مع تغير القوى المسيطرة على بلاد الشام.

جبعون

كانت جبعون من المراكز المهمة في وسط كنعان خلال العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي، وارتبطت بمنطقة تقع إلى الشمال الغربي من القدس القديمة. ولا تظهر جبعون في المصادر على أنها مملكة إقليمية واسعة مثل حاصور أو مجدو، لكنها كانت مركزًا سياسيًا محليًا له حاكم ومجموعة من القرى التابعة أو المرتبطة به.

تظهر جبعون في الرواية التوراتية بوصفها مدينة ذات وزن سياسي، حيث عقد أهلها اتفاقًا مع بني إسرائيل بعد دخولهم إلى المنطقة. وتصف الرواية سكان جبعون بأنهم لجؤوا إلى الحيلة للحصول على معاهدة تحميهم، ثم أصبحت جبعون ضمن المدن المرتبطة بإسرائيل. ورغم أن تفاصيل هذه الرواية تنتمي إلى التقليد التوراتي ولا يمكن إثبات كل عناصرها أثريًا، فإنها تعكس صورة مدينة كانت تتمتع بقدر من التنظيم السياسي والاستقلال المحلي.

وتشير الأدلة الأثرية إلى أن جبعون كانت مركزًا اقتصاديًا مهمًا، واشتهرت بصورة خاصة بمنشآت تخزين النبيذ. فقد عُثر في الموقع على عدد كبير من أوعية التخزين المنقوشة، إضافة إلى منشآت مرتبطة بإنتاج النبيذ، مما يدل على وجود اقتصاد زراعي منظم وإدارة قادرة على جمع المنتجات وتخزينها.

وفي العصر الحديدي مع قيام الممالك الإسرائيلية، أصبحت جبعون ضمن المجال السياسي الذي خضع للسلطة الأسرائيلية ثم ارتبطت بمملكة يهوذا بعد انقسام المملكة. وأصبح موقعها القريب من القدس عاملًا في استمرار أهميتها، إذ كانت تقع على الطرق المؤدية إلى العاصمة والمناطق الشمالية.

وترتبط جبعون أيضًا بصراع سياسي مهم في بداية الحكم الملكي الإسرائيلي؛ إذ تذكر الرواية وقوع معركة كبيرة بين رجال داود بقيادة يوآب وقوات إيشبوشث بن شاول بقيادة أبنير، في منطقة جبعون. وانتهت المعركة بتراجع قوات شاول، واستمر الصراع بين بيت شاول وبيت داود قبل أن يثبت داود حكمه على المملكتين.

وفي مرحلة لاحقة أصبحت جبعون ضمن مملكة يهوذا، واستمرت كمركز زراعي واقتصادي. وتظهر أهميتها في الروايات الدينية أيضًا باعتبارها مكانًا ارتبط بمقام ديني، كما ارتبطت باسم صموئيل وطقوس العبادة قبل أن يصبح الهيكل في القدس المركز الرئيسي.

لا نستطيع، بناءً على الأدلة المتوفرة، أن نقدم جبعون بوصفها مملكة مستقلة ذات سلسلة ملوك معروفة. والأدق تاريخيًا وصفها بأنها مدينة-دولة أو مركز سياسي كنعاني محلي في مراحلها المبكرة، ثم مدينة ضمن الممالك الإسرائيلية واليهودية. وتكمن أهميتها في اقتصادها الزراعي، وموقعها، ودورها في التحولات السياسية التي رافقت قيام المملكة الإسرائيلية.

بيت إيل

كانت بيت إيل من المدن القديمة في مرتفعات وسط كنعان، وتقع إلى الشمال من القدس وعلى الطريق الذي يربط المرتفعات الوسطى بالمناطق الشمالية. ويعود الاستيطان في موقعها إلى عصور مبكرة، إلا أن أهميتها السياسية والدينية برزت بصورة خاصة خلال العصر البرونزي المتأخر والعصر الحديدي.

ظهر اسم المدينة في المصادر القديمة بصيغ مختلفة، كما ارتبط اسمها في التقليد التوراتي بموقع ديني مهم. وتذكر الروايات أن يعقوب ارتبط بالمكان، وأنه أطلق عليه اسم بيت إيل، فأصبح الموقع لاحقًا من المراكز الدينية البارزة في تقاليد بني إسرائيل. لكن أهمية المدينة لا تقتصر على الجانب الديني؛ فموقعها جعلها نقطة مهمة على طرق الحركة بين شمال كنعان وجنوبها.

خلال العصر البرونزي كانت بيت إيل واحدة من المدن الكنعانية المحلية، ووقعت ضمن المجال السياسي الذي خضع بدرجات مختلفة للنفوذ المصري. وكغيرها من مدن كنعان كانت تُدار من خلال سلطة محلية، وكانت تتأثر مباشرة بالصراعات بين المدن المجاورة وبالسياسة المصرية في المنطقة.

ومع بداية العصر الحديدي تغيرت الخريطة السياسية. ارتبطت بيت إيل بالمملكة الإسرائيلية الشمالية، وأصبحت واحدة من أهم مراكزها. وبعد انقسام المملكة في عهد يربعام الأول اكتسبت المدينة أهمية استثنائية؛ إذ أقام فيها يربعام أحد مركزي العبادة الرئيسيين لمملكته، إلى جانب دان في الشمال.

ومنذ ذلك الوقت أصبحت بيت إيل مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالهوية السياسية والدينية لمملكة إسرائيل.

أدى موقع بيت إيل القريب من حدود مملكة يهوذا إلى جعلها مدينة استراتيجية أيضًا. فقد كانت تقع في منطقة يمكن من خلالها مراقبة الطرق المؤدية إلى القدس، ولذلك كان السيطرة عليها ذات قيمة عسكرية وسياسية. ومع اشتداد الصراع بين إسرائيل ويهوذا أصبحت المدينة جزءًا من المناطق التي يتنافس عليها الطرفان.

استمرت بيت إيل في مكانتها خلال القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، ثم دخلت في مرحلة الاضطراب التي أصابت المملكة الإسرائيلية مع التوسع الآشوري. وفي سنة ٧٢٢ ق.م. تقريبًا سقطت السامرة وانتهت المملكة الشمالية، ودخلت بيت إيل ضمن النظام الآشوري الجديد، وإن استمر الاستيطان فيها خلال الفترات اللاحقة.

وهكذا لم تكن بيت إيل مملكة مستقلة كبيرة، وإنما مدينة كنعانية تحولت إلى مركز سياسي وديني رئيسي في مملكة إسرائيل. وتكمن أهميتها في موقعها، وفي دورها الديني، وفي ارتباطها بمرحلة تأسيس المملكة الشمالية واستمرارها حتى سقوطها أمام آشور.

عي

كانت عي من المواقع القديمة في مرتفعات وسط كنعان، ويرتبط اسمها في التقليد التوراتي بمدينة دخلت في أحداث مرتبطة ببدايات الاستقرار الإسرائيلي في المنطقة. وقد أصبح اسمها من الأسماء المعروفة في تاريخ كنعان بسبب الروايات التي ربطتها بالصراع على مدن المرتفعات.

يُحدد موقع عي تقليديًا بالقرب من خربة التل شرق بيت إيل، لكن تحديد المدينة المذكورة في الروايات القديمة بهذا الموقع ظل موضع نقاش بين الباحثين، لأن الموقع الأثري نفسه شهد فترات استيطان مختلفة، ولا يتطابق تسلسل طبقاته بصورة بسيطة مع كل التفاصيل الواردة في الرواية التوراتية.

وبحسب الرواية التوراتية، جاءت عي بعد أريحا في سلسلة المدن التي واجهها الإسرائيليون خلال دخولهم إلى أرض كنعان. وتذكر الرواية أن الهجوم الأول على المدينة فشل، ثم تمكن الإسرائيليون من السيطرة عليها في هجوم لاحق بعد استخدام خطة عسكرية تعتمد على استدراج المدافعين خارج المدينة. هذه الرواية تعكس أهمية المدينة في التقليد الإسرائيلي القديم، لكنها لا تكفي وحدها لإثبات كل تفاصيل الحدث تاريخيًا.

ومن الناحية الأثرية، فإن موقع خربة التل كان مدينة كبيرة في العصر البرونزي المبكر، ثم شهد فترة طويلة من التراجع أو الانقطاع في الاستيطان قبل عودة الاستقرار في فترات لاحقة. ولهذا نشأ جدل واسع حول ما إذا كان الموقع هو نفسه عي المذكورة في الروايات، أم أن المدينة كانت في موقع آخر ولا توجد أدلة تسمح بوصف عي بأنها مملكة واسعة أو دولة مستقلة ذات سلالة ملكية معروفة. والأدق التعامل معها باعتبارها مركزًا حضريًا

محليًا في وسط كنعان، ارتبط اسمه بتقاليد تاريخية مهمة حول التحولات السياسية في المنطقة.

وتكمن أهمية عي في موقعها ضمن مرتفعات كنعان، وفي قربها من بيت إيل والطرق الداخلية. كما أن الجدل الأثري حول تحديدها يجعلها مثالًا واضحًا على ضرورة الفصل بين ما تقوله المصادر التقليدية وبين ما يمكن إثباته من خلال الآثار، حتى لا تتحول الرواية إلى حقيقة أثرية قطعية من دون دليل.

شكيم

كانت شكيم من أقدم المراكز السياسية في قلب بلاد كنعان، وقامت في موقع استراتيجي بين جبل جرزيم وجبل عيبال، المعروفة بتل بلاطة في المنطقة التي تعرف اليوم بنابلس. وقد منحها هذا الموقع اتصالًا مباشرًا بالطرق التي تعبر وسط البلاد، وجعلها واحدة من المدن التي امتلكت وزنًا سياسيًا يتجاوز حجمها. ويظهر اسم شكيم في المصادر المصرية القديمة، كما ترتبط المدينة منذ العصر البرونزي بشبكة الممالك والمدن التي كانت تتعامل مع مصر ومع القوى السورية. تعود أقدم دلائل الاستيطان في الموقع إلى الألف الرابع قبل الميلاد، حيث عُثر على بقايا استيطان من العصر النحاسي، ثم شهد الموقع فترات من الانقطاع قبل أن تعود شكيم إلى الظهور كمدينة مزدهرة في العصر البرونزي الأوسط، ولا سيما منذ نحو القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ومع نمو المدينة تحولت إلى مركز حضري محصن، وبدأت طبقاتها تتعاقب فوق بعضها، حتى أصبح تل بلاطة سجلًا متراكمًا لمدن متعددة عاشت في المكان نفسه عبر أكثر من ثلاثة آلاف عام.

وفي العصر البرونزي الأوسط أصبحت شكيم مدينة قوية ذات تحصينات ضخمة. فقد كشفت التنقيبات عن أسوار حجرية هائلة وبوابات واسعة، وعن مدينة منظمة تضم مناطق سكنية ومنشآت عامة. وفي داخل المدينة ظهر مبنى ملكي كبير يرجح أنه كان قصرًا، وقد بني ضمن المدينة المحصنة، في دلالة على وجود سلطة مركزية امتلكت القدرة على تنظيم العمل وتشييد المنشآت الضخمة. ولم تكن هذه التحصينات مجرد جدران لحماية السكان؛ فقد كانت شكيم مدينة تتحكم في منطقة جبلية مهمة تقع على طرق تربط شمال المرتفعات بجنوبها، ولذلك كان تحصينها جزءًا من قوتها السياسية.

وكان للحياة الدينية مكان بارز في المدينة. ففي أعلى المنطقة المحصنة عُثر على معبد حصين ضخم، وهو من أكثر منشآت شكيم إثارة للاهتمام. شُيد المعبد في العصر البرونزي الأوسط فوق منطقة كانت قد احتوت قبل ذلك على منشآت أخرى، واتخذ بناءً قويًا أشبه بالقلعة، بجدران حجرية سميكة ومدخل تحيط به أبراج، بينما قسمت الأعمدة والمساحات الداخلية قاعة المعبد إلى أجزاء متعددة. وتكشف ضخامة هذا البناء عن أهمية المؤسسة الدينية داخل المدينة، إذ لم يكن المعبد مجرد مبنى صغير للعبادة، بل منشأة ضخمة احتلت موقعًا بارزًا داخل المركز الحضري. وفي العصر البرونزي المتأخر استمر استخدام المنشأة الدينية، مع إدخال تعديلات وإعادة بناء بعد مراحل من الدمار.

كما تركت شكيم أدلة مهمة على الحياة الكتابية والإدارية. فقد عُثر في الموقع على قطعة حجرية تحمل نقشًا كنعانيًا يعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، إلى جانب ألواح طينية مكتوبة بالأكدية، من بينها نص يرتبط بتسديد متأخرات من الحبوب والخمر، وهو ما يكشف عن وجود إدارة تعتمد على الكتابة وتسجيل المعاملات. كما عُثر على ما يشير إلى تقاليد تعليمية للكتابة،

مما يضع شكيم ضمن المدن الكنعانية التي لم تكن تعتمد على النشاط الزراعي والسياسي وحده، بل امتلكت أيضًا جهازًا إداريًا وثقافة كتابية متصلة بالعالم الأوسع لشرق المتوسط والشرق الأدنى.

برزت شكيم في العصر البرونزي بوصفها مركزًا لمملكة محلية يحكمها أمراء كانت سلطتهم تمتد إلى المناطق المحيطة. وتظهر رسائل تل العمارنة أن لابايا، حاكم شكيم، كان من أكثر حكام كنعان إثارة للقلق لدى الإدارة المصرية. فقد تمكن لابايا من توسيع نفوذه على حساب مدن مجاورة، ودخل في صراعات مع حكام آخرين، بينما حاولت السلطات المصرية الحد من قوته. وتكشف رسائله ورسائل خصومه عن عالم سياسي معقد، لم تكن فيه المدن الكنعانية مجرد وحدات تابعة لمصر، بل كانت تمتلك قدرة كبيرة على المناورة والتحالف والصراع فيما بينها.

كان لابايا يدرك أن قوة شكيم تقوم على توسيع مجال نفوذها في الداخل. ولذلك دخل في نزاعات مع حكام مدن مثل جازر ومجدو، واتهمه خصومه بالاستيلاء على الأراضي والقرى التابعة لهم. وفي الوقت نفسه حاول الحفاظ على علاقاته مع مصر، فأرسل الرسائل التي يؤكد فيها ولاءه للفرعون، بينما كانت تقارير الحكام الآخرين تتهمه بالعصيان والتوسع. وانتهى الأمر بمقتل لابايو في ظروف مرتبطة بالصراع السياسي، لكن نفوذ شكيم لم يختفِ مباشرة بعده.

وفي نهاية العصر البرونزي تعرضت شكيم، مثل غيرها من مراكز كنعان، لتغيرات سياسية كبيرة. ثم ظهرت المدينة بقوة في الرواية التوراتية، حيث ارتبطت بأحداث مهمة في بدايات تاريخ إسرائيل. وبعد قيام المملكة الموحدة أصبحت شكيم مركزًا سياسيًا مهمًا، ثم لعبت دورًا حاسمًا في الانقسام الذي

وقع بعد وفاة سليمان. ففي شكيم اجتمعت القبائل لمبايعة رحبعام، لكن رفضه تخفيف الأعباء المفروضة على السكان أدى إلى التمرد، واختيار يربعام بن نباط ملكًا على مملكة إسرائيل الشمالية. ومنذ ذلك الوقت أصبحت شكيم إحدى العواصم المبكرة للمملكة الجديدة.

لم تستمر شكيم عاصمة لإسرائيل طويلًا؛ إذ انتقلت العاصمة لاحقًا إلى ترصة ثم إلى السامرة في عهد عمري. ومع ذلك احتفظت شكيم بمكانة دينية وسياسية كبيرة، خصوصًا بسبب موقعها بين جبلي جرزيم وعيبال. وعندما دخلت مملكة إسرائيل في صراع مع آشور، انتهى استقلالها السياسي ضمن موجة الفتوحات الآشورية في القرن الثامن قبل الميلاد، ثم تعرضت المنطقة لتغيرات سكانية وإدارية متلاحقة.

ثم دخلت شكيم مرحلة جديدة في العصر الحديدي، وظلت مدينة محصنة ومركزًا سياسيًا ودينيًا مهمًا. وفي هذه المرحلة ترتبط المدينة بقصة أبيمالك، ابن جدعون، الذي سعى إلى فرض سلطته على شكيم وأعلن نفسه ملكًا بمساندة بعض أهلها. وتروي الرواية القديمة أن أبيمالك دخل في صراع مع سكان المدينة، وانتهى الأمر بمواجهة عنيفة أدت إلى تدمير شكيم. والأهم أن التنقيبات كشفت فعلًا عن طبقة دمار عنيفة في المدينة تعود إلى أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد، شملت مباني المدينة ومعبدها، ثم أعقبها تراجع واضح في الاستيطان. ولهذا ربط عدد من الباحثين بين هذا الدمار وبين أحداث أبيمالك، وإن كان من الأفضل في الكتاب أن نقول إن التطابق بين الرواية والطبقة الأثرية هو تفسير بحثي، وليس حقيقة يمكن إثباتها بصورة مطلقة.

بعد هذا الدمار لم تختفِ شكيم نهائيًا، بل مرت بمراحل من التراجع وإعادة الاستيطان. وفي العصر الحديدي اللاحق عادت الحياة إلى الموقع، وظهرت مبانٍ ومنشآت جديدة، إلا أن المدينة لم تستعد المكانة التي امتلكتها في أوج العصر البرونزي. ثم تعرضت المنطقة لدمارات أخرى، من بينها دمار مرتبط بالتوسع الآشوري في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، وبعده تراجع حجم الاستيطان لفترات طويلة. وفي العصر الهلنستي عادت شكيم إلى الحياة من جديد، وأعيد بناء مدينة على التل، واستمرت فيها مظاهر الازدهار لبعض الوقت قبل أن تنتهي حياة المدينة القديمة في مرحلة لاحقة من العصر الهلنستي.

وهكذا تكشف شكيم عن مدينة لم تكن مجرد مركز ديني أو سياسي عابر، بل مجتمعًا حضريًا امتلك أسوارًا وبوابات وقصرًا ومعبدًا ضخمًا وتقاليد كتابية وإدارية، ودخل في علاقات مباشرة مع مصر، وبرز من حكامها لابايا في رسائل تل العمارنة، ثم شهدت في العصر الحديدي صراعات داخلية عنيفة ارتبطت بقصة أبيمالك وطبقة دمار حقيقية في آثارها. وبعد كل مرحلة من السقوط كانت المدينة تعود بصورة جديدة، حتى أصبح تل بلاطة شاهدًا على سلسلة طويلة من البناء والدمار وإعادة البناء، تمتد من الألف الرابع قبل الميلاد إلى نهاية المدينة القديمة.

وفي الفترة الفارسية أصبحت المنطقة مركزًا مهمًا لتشكل المجتمع السامري، ثم ازدادت أهمية شكيم وجبل جرزيم في العصر الهلنستي. وبالقرب من شكيم أقيمت السامرة كمركز سياسي في مرحلة لاحقة، بينما أصبح جبل جرزيم المركز الديني الرئيسي للسامريين. واستمر ارتباط اسم شكيم بالهوية السامرية، حتى وإن تغيرت طبيعة المدينة ومركزها السياسي عبر الزمن.

القدس (يبوس)

كانت القدس من أقدم المراكز الحضرية في قلب بلاد الشام، ويعود وجودها الحضري إلى العصر البرونزي المبكر، بينما تظهر بوصفها مركزًا سياسيًا واضحًا في العصر البرونزي الأوسط والمتأخر. وكان اسمها في المصادر القديمة قريبًا من أوروساليم/أوروشاليم، في حين ارتبط سكانها في المصادر اللاحقة باسم اليبوسيين. وقد جعل موقعها في المرتفعات الوسطى من كنعان مركزًا مهمًا بين شمال البلاد وجنوبها، رغم أن المدينة نفسها لم تكن في البداية من أكبر الممالك الكنعانية من حيث المساحة.

تظهر القدس في رسائل تل العمارنة خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وكان حاكمها عبد خيبا من أشهر حكام المدن الكنعانية الذين وصلت رسائلهم إلى البلاط المصري. تكشف رسائله أن القدس كانت في ذلك الوقت مدينة يحكمها أمير محلي تحت النفوذ المصري، وأن وضعها السياسي كان يتعرض لضغوط مستمرة من القوى المحيطة بها. فقد اشتكى عبد خيبا من اضطراب المنطقة ومن تحركات جماعات وقوى منافسة، وطلب من الفرعون إرسال قوات لحماية المدينة.

وتكشف رسائل عبد خيبا جانبًا مهمًا من طبيعة النظام السياسي في كنعان؛ فالقدس لم تكن معزولة، بل كانت جزءًا من شبكة واسعة من المدن التي تتنافس على الأرض والطرق والموارد، بينما كانت مصر تحاول الحفاظ على نفوذها من خلال الحكام المحليين والحاميات. وكان على حاكم القدس أن يحافظ على علاقته بمصر وفي الوقت نفسه يتعامل مع القوى الكنعانية المحيطة به.

كانت المدينة محصنة بطبيعتها وبمنشآتها الدفاعية، واستفادت من وجود مصدر مائي أساسي هو نبع جيحون. وقد تطورت حول النبع أنظمة لحماية المياه وإيصالها إلى داخل المدينة، الأمر الذي كان بالغ الأهمية بالنسبة إلى مدينة تقع فوق المرتفعات وتعتمد على مورد مائي محدود نفق\بئر وارن. وتكشف هذه المنشآت عن قدرة سكان القدس في العصر البرونزي على تطوير حلول هندسية لحماية المدينة وتأمين استمرار الحياة فيها أثناء الحصار.

وفي أواخر العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي تغيرت الخريطة السياسية لجنوب كنعان. وتربط الرواية التوراتية القدس باليبوسيين، وتذكر أن داود استولى على المدينة وحولها إلى عاصمته، وأنها عُرفت قبل ذلك باسم مدينة داود بعد الاستيلاء عليها. لكن التفاصيل الدقيقة حول كيفية حدوث هذا الانتقال لا يمكن إعادة بنائها من المصادر الأثرية وحدها، ولذلك يجب التعامل مع الرواية بوصفها مصدرًا تقليديًا مهمًا مع إبقاء حدود الإثبات التاريخي واضحة.

ومع قيام المملكة الإسرائيلية الموحدة، وفق الرواية التوراتية، أصبحت القدس مركز الحكم في عهد داود ثم سليمان. وفي عهد سليمان ارتبطت المدينة بمشروع بناء ضخم، وعلى رأسه المعبد الذي أصبح لاحقًا مركز العبادة الرئيسي لمملكة يهوذا. ومع انتقال مركز السلطة إلى القدس تحولت المدينة من مركز كنعاني محلي إلى عاصمة سياسية ودينية لمملكة آخذة في التوسع.

بعد وفاة سليمان وانقسام المملكة أصبحت القدس عاصمة مملكة يهوذا، في حين أصبحت السامرة عاصمة مملكة إسرائيل الشمالية. ومنذ ذلك الوقت بدأ

تاريخ القدس السياسي يأخذ مسارًا مختلفًا عن المدن الكنعانية القديمة؛ فقد أصبحت مركزًا لمملكة مستقلة، واحتفظت بمكانتها السياسية والدينية طوال قرون.

تعرضت القدس لتهديدات عسكرية متكررة خلال العصر الحديدي. ففي عهد سنحاريب الآشوري سنة ٧٠١ ق.م. تعرضت مملكة يهوذا لغزو واسع، وسقطت العديد من مدنها، وعلى رأسها لخيش، لكن القدس لم تسقط في تلك الحملة. وتشير السجلات الآشورية إلى أن سنحاريب حاصر ملك يهوذا حزقيا في القدس، لكنه لم يستولِ على المدينة. وأصبحت هذه الحملة واحدة من أهم الأحداث العسكرية في تاريخ القدس القديم، لأنها أظهرت قدرة المملكة على الصمود أمام الإمبراطورية الآشورية، وإن كانت قد خسرت عددًا كبيرًا من مدنها وأراضيها.

وفي القرن الثامن قيل الميلاد حُفر نفق شيلوح\نفق حزقيا لنقل مياه نبع جيحون إلى بركة شيلوح في إطار الاستعدادات للحصار الآشوري طوله حوالي ٥٣٣ متر والأجمل تاريخياً أن النقش الموجود داخله يصف التقاء مجموعتي الحفارين اللتين تعملان في اتجاهين متعاكسين.

بعد ذلك دخلت القدس مرحلة ازدهار نسبي في عهد يوشيا، الذي حاول توسيع نفوذ مملكة يهوذا وإعادة تنظيم الحياة الدينية والسياسية. لكن صعود الإمبراطورية البابلية وضع حدًا لهذا الاستقرار. وفي سنة ٥٩٧ ق.م. استولى البابليون على القدس وأخذوا عددًا من أفراد الطبقة الحاكمة إلى بابل، ثم اندلعت ثورة جديدة ضدهم.

وفي ٥٨٦ ق.م. عاد الجيش البابلي بقيادة نبوخذنصر الثاني وحاصر القدس. وبعد سقوط المدينة دُمّر جزء كبير منها ودُمّر المعبد، ونُقل عدد كبير من

سكان المملكة إلى بابل. وبذلك انتهت مملكة يهوذا بوصفها دولة مستقلة، وانتهى معها العصر الملكي للقدس لكن سقوط المملكة لم يكن نهاية القدس. ففي العصر الفارسي عادت المدينة إلى الحياة السياسية والدينية، وأعيد بناء المعبد، ثم أصبحت في العصر الهلنستي جزءًا من الصراعات التي شهدتها بلاد الشام بين البطالمة والسلوقيين. وفي القرن الثاني قبل الميلاد دخلت في مرحلة جديدة عندما ثار يهودا المكابي وأتباعه ضد الحكم السلوقي، واستعيدت المدينة وأقيم فيها حكم محلي يهودي.

وفي العصر الروماني أصبحت القدس مركزًا سياسيًا ودينيًا مهمًا، لكنها دخلت في صراعات متكررة مع السلطة الرومانية. وانتهى أحد أعنف هذه الصراعات في الثورة اليهودية الكبرى، عندما حاصر الجيش الروماني المدينة سنة ٧٠م بقيادة تيطس ابن الإمبراطور فسباسيان، وانتهى الحصار بسقوط القدس وتدمير الهيكل.

وهكذا مر تاريخ القدس بتحولات استثنائية بدأت كمركز كنعاني عرف في العصر البرونزي باسم أوروشاليم، وارتبط سكانها باليبوسيين في المصادر اللاحقة، ثم أصبحت وفق التقليد التوراتي عاصمة داود وسليمان، وبعد انقسام المملكة صارت عاصمة يهوذا، ثم صمدت أمام آشور وسقطت أمام بابل، وعادت لتصبح مركزًا دينيًا وسياسيًا في العصور الفارسية والهلنستية والرومانية ولهذا لا يمكن اختزال تاريخ القدس في كونها مدينة دينية، فقبل أن تصبح مركزًا دينيًا عالميًا كانت مدينة كنعانية ذات حكم محلي، ثم عاصمة لمملكة، ثم هدفًا للإمبراطوريات الكبرى. واستمرار أهميتها عبر هذه المراحل يجعلها واحدة من أكثر مدن بلاد الشام تأثيرًا في التاريخ السياسي والديني للمنطقة.

أدولام

كانت أدولام من المدن القديمة في منطقة يهوذا، وارتبطت بموقع استراتيجي في السفوح الواقعة بين المرتفعات الداخلية وسهل يهوذا مشرفة على وادي إيلة. ويُعتقد أن مركزها القديم كان في منطقة تل الشيخ مذكور، وقد جعلها موقعها قريبة من الطرق التي تربط مناطق المرتفعات بالسهل الساحلي.

حيث كشفت المسوحات والتنقيبات عن بقايا استيطان متعاقبة، وتراوحت اللقى الفخارية من العصر النحاسي والعصر البرونزي إلى العصر الحديدي والفترات الهلنستية والرومانية والبيزنطية والعصور الإسلامية والعثمانية. كما ظهرت في الموقع بقايا منشآت حجرية، وكهوف منحوتة في الصخر، وصهاريج لتخزين المياه، إلى جانب مخبأ يعود إلى فترة ثورة بار كوخبا في القرن الثاني الميلادي، مما يدل على استمرار استخدام الموقع عبر فترات طويلة. وقد كان موقعها المرتفع وكثرة الكهوف المحيطة بها من أبرز خصائصها الطبيعية، وهو ما ينسجم مع مكانتها كمدينة محصنة ومأهولة على تخوم المناطق المتنازع عليها.

ظهر اسم أدولام في تقاليد بلاد الشام القديمة بوصفها مدينة ذات أهمية محلية، ثم أصبح لها حضور واضح في الروايات المتعلقة بالمملكة الإسرائيلية ومملكة يهوذا. ولم تكن أدولام من الممالك الكبرى المستقلة، بل كانت مدينة أو مركزًا إقليميًا يخضع في مراحل مختلفة للقوى السياسية التي سيطرت على منطقة يهوذا.

ترتبط أدولام بصورة خاصة بتاريخ داود؛ إذ تذكر الرواية التوراتية أن داود لجأ إلى حصن أدولام عندما كان مطاردًا من الملك شاول، وأن مجموعة من

الرجال انضمت إليه هناك. وبغض النظر عن التفاصيل التي يصعب التحقق منها أثريًا، فقد حافظت أدولام من خلال هذه الرواية على مكانتها كأحد المواقع المرتبطة بمرحلة صعود داود السياسية.

ومع قيام مملكة يهوذا أصبحت أدولام جزءًا من شبكة المدن التي تحمي الحدود الغربية والجنوبية للمملكة. وكان موقعها مهمًا لأنها تقع في منطقة انتقالية بين المرتفعات الزراعية والمناطق المنخفضة، ولذلك كان من يسيطر عليها قادرًا على مراقبة حركة الأشخاص والبضائع والجيوش بين المنطقتين.

تظهر أدولام أيضًا ضمن المدن التي ارتبطت بمملكة يهوذا في العصر الحديدي، ثم تعرضت المنطقة كلها للضغط الآشوري في القرن الثامن قبل الميلاد. وعندما اجتاح سنحاريب مملكة يهوذا سنة ٧٠١ ق.م. تعرض عدد كبير من مدنها للدمار أو الخضوع، ودخلت أدولام ضمن البيئة السياسية التي أعادت آشور تشكيلها بعد الحملة.

ثم استمرت المدينة في الوجود خلال الفترات اللاحقة، وظلت منطقة أدولام مرتبطة بالمراكز الزراعية والتحصينات التي تحمي الطرق الداخلية.

وبذلك كانت أدولام مدينة إقليمية محصنة في يهوذا وليست مملكة مستقلة. وتكمن أهميتها في موقعها الحدودي، وفي ارتباطها بمرحلة صعود داود، ثم بدورها ضمن شبكة مدن مملكة يهوذا في العصر الحديدي.

جازر

تُعدّ جازر من أقدم المدن الكنعانية المعروفة في بلاد الشام، ويعود الاستيطان في موقعها إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، ثم تطورت خلال العصر البرونزي إلى مدينة كبيرة محصنة تتمتع بموقع استراتيجي على الطريق الذي يصل الساحل بداخل بلاد كنعان. وظهرت جازر في المصادر المصرية القديمة، كما عُثر في موقعها على آثار تشير إلى صلات سياسية وتجارية وثقافية واسعة بمصر والمناطق المجاورة. ومن أبرز ما كشفته التنقيبات التحصينات الحجرية الضخمة والبوابات والمنشآت العامة، إضافة إلى مجموعة من الأحجار القائمة العشرة المعروفة باسم المصبّات، والتي ارتبطت بمنشأة ذات طابع طقسي، وإن كانت وظيفتها الدقيقة لا تزال موضع نقاش بين الباحثين. كما كشفت المدينة عن نظام مائي ضخم محفور في الصخر، يمتد من داخل المدينة نحو مصدر للمياه خارج أسوارها، ويُعد من أبرز المنشآت الهندسية الكنعانية في الموقع، إذ مكّن السكان من الوصول إلى المياه دون مغادرة المنطقة المحصنة، وهو ما كان ذا أهمية خاصة أثناء الحصار. وفي العصر البرونزي المتأخر تعرضت جازر لاضطرابات ودمار، ثم عادت إلى الازدهار في العصر الحديدي، وارتبطت بالمملكة الإسرائيلية، وشهدت إنشاء تحصينات وبوابة ضخمة ذات حجرات متعددة، مع بقاء تاريخ بعض هذه المنشآت موضع نقاش أثري. ومن أشهر مكتشفات جازر أيضًا تقويم جازر، وهو لوح صغير مكتوب بخط أبجدي قديم يذكر أشهر السنة والأعمال الزراعية المرتبطة بها، ويُعد من أقدم النصوص الأبجدية الكنعانية/العبرية المعروفة. واستمرت جازر مأهولة في الفترات اللاحقة،

وظلت آثارها شاهدة على مدينة لعب موقعها دورًا أساسيًا في استمرار أهميتها عبر العصور.

يظهر اسم جازر في المصادر المصرية القديمة، ولا سيما في قوائم المدن التي سجلها الفراعنة خلال حملاتهم في بلاد الشام. وقد خضعت المدينة للنفوذ المصري خلال أجزاء من العصر البرونزي المتأخر، لكنها احتفظت بحاكم محلي وبقدر من الإدارة الذاتية. وتكشف رسائل تل العمارنة أن حكام المدن الكنعانية كانوا يعيشون في عالم سياسي شديد التنافس، وكانت جازر من المدن التي تأثرت بالصراع بين الحكام المحليين وبمحاولات مصر الحفاظ على نفوذها في المنطقة.

وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد دخلت جازر في مواجهة مباشرة مع الجيش المصري خلال حملات تحتمس الثالث في كنعان. وكان الهدف المصري تثبيت السيطرة على المدن التي يمكن أن تهدد خطوط الاتصال بين مصر وشمال بلاد الشام. وبعد خضوع المنطقة للنفوذ المصري أصبحت جازر جزءًا من شبكة المدن التي يعتمد عليها المصريون في إدارة كنعان، واستمرت فيها سلطة الحكام المحليين تحت المظلة المصرية.

لكن الاستقرار لم يكن دائمًا. فقد تعرضت جازر لاضطرابات وحروب خلال أواخر العصر البرونزي، وأظهرت رسائل تل العمارنة أن المدينة كانت محاطة بمنافسين وحلفاء متغيرين. وكان الصراع بين حكام المدن جزءًا من أزمة أوسع أصابت النظام الكنعاني، مع تراجع القدرة المصرية على فرض سلطتها المباشرة. ومع انهيار النظام السياسي في نهاية العصر البرونزي تغيرت هوية القوى المسيطرة على المنطقة، ودخلت جازر مرحلة جديدة.

ترتبط جازر في الرواية التوراتية بالملك سليمان، الذي نُسب إليه تحصينها إلى جانب حاصور ومجدو. إلا أن التأريخ الدقيق للمنشآت الضخمة المكتشفة في جازر لا يزال موضع نقاش بين الباحثين، ولذلك ينبغي الفصل بين الرواية التقليدية وبين ما يمكن إثباته أثريًا. ومن المؤكد أن المدينة أصبحت ضمن المملكة الإسرائيلية في العصر الحديدي، وأن موقعها جعلها إحدى نقاط الدفاع المهمة على الطريق بين الساحل والداخل.

وتظهر جازر في سياق العلاقات مع الفلسطينيين والمناطق الساحلية، كما دخلت في نطاق النفوذ الإسرائيلي خلال مراحل من العصر الحديدي. واستمرت المدينة مركزًا محصنًا حتى تعرضت للدمار خلال الحملات الآشورية في القرن الثامن قبل الميلاد. وبعد ذلك لم تعد جازر قوة سياسية مستقلة، بل أصبحت جزءًا من الأراضي التي تعاقبت عليها الإمبراطوريات الكبرى.

ومع ذلك لم تنتهِ أهمية جازر بسقوط كيانها السياسي؛ فقد بقي موقعها مأهولًا ومستخدمًا في مراحل لاحقة. وهكذا يمثل تاريخها انتقال مدينة كنعانية من عالم الممالك المحلية التابعة لمصر، إلى مرحلة الممالك الإسرائيلية، ثم إلى عالم الإمبراطوريات الآشورية والفارسية والهلنستية، دون أن تتحول في أي مرحلة إلى قوة إقليمية تضاهي حاصور أو مجدو.

مكدة

كانت مكدة، التي تُعرف في المصادر باسم مقيدة أو مكيدة (Makkedah)، من مدن جنوب كنعان التي ارتبط اسمها بأحداث التحولات السياسية في المنطقة. ولا نملك حتى الآن تحديدًا أثريًا نهائيًا لموقع المدينة، ولذلك ينبغي عدم تقديم موقع جغرافي واحد على أنه حقيقة محسومة.

يظهر اسم مكدة بصورة أساسية في الرواية التوراتية ضمن أحداث الصراع بين بني إسرائيل ومدن كنعان في مرحلة دخولهم إلى البلاد. وتُذكر المدينة ضمن تحالف ملوك جنوب كنعان الذي واجه يشوع، حيث تحالف خمسة ملوك هم ملوك القدس وحبرون ويرموث ولخيش ومكدة لمواجهة التوسع الإسرائيلي.

وبحسب الرواية، تجمع هؤلاء الملوك ضد جبعون بعد أن عقدت اتفاقًا مع الإسرائيليين، فتحركوا لمحاصرتها. وعندما وصل جيش يشوع لمساعدة جبعون دارت المعركة، ثم تراجع ملوك التحالف ولجؤوا إلى كهف في منطقة مكدة. وبعد انتهاء المعركة أُخذ الملوك وأُعدموا وفق الرواية، ثم أصبحت مكدة نفسها ضمن المدن التي خضعت للقوة الإسرائيلية.

وتكشف هذه القصة، حتى مع ضرورة التعامل معها كمصدر تقليدي لا كتوثيق مستقل لكل تفاصيل الأحداث، عن طبيعة النظام السياسي في جنوب كنعان مدن يحكمها ملوك محليون، وكانت قادرة على عقد تحالفات عسكرية عندما ظهر تهديد مشترك. كما تكشف أهمية القدس وحبرون ولخيش ويرموث ومكدة ضمن شبكة المدن الجنوبية.

ولا نملك قائمة موثوقة بملوك مكدة أو تاريخًا سياسيًا مستقلًا طويلًا لها، كما أن تحديد موقعها الأثري لا يزال غير محسوم. لذلك لا يصح بناء مملكة كاملة حول الاسم أو اختراع حدود وسلالة حاكمة لا تثبتها المصادر.

وبعد المرحلة التي ارتبطت بها في الرواية التوراتية، لم تعد مكدة تظهر كقوة سياسية مستقلة ذات تأثير إقليمي. ويبدو أن اسمها بقي مرتبطًا بذاكرة المدن الكنعانية الجنوبية التي دخلت ضمن النظام السياسي الجديد في العصر الحديدي ولهذا تكون مكدة باعتبارها مدينة-دولة كنعانية جنوبية وردت في تقاليد مهمة عن الصراع بين مدن كنعان والقوى الإسرائيلية الناشئة، مع التنبيه إلى أن موقعها وتفاصيل تاريخها المبكر لا تزال موضع بحث. وهذا يحافظ على قيمة المادة من دون تحويل الرواية التقليدية إلى حقيقة أثرية محسومة.

يرموث

كانت يرموث، المعروفة أثريًا باسم تل يرموث والقائمة في منطقة شفيلة يهوذا و هي منطقة التلال المنخفضة الممتدة بين جبال يهوذا و السهل الساحلي قرب بيت شيمش في فلسطين التاريخية، من أبرز المراكز الحضرية في جنوب كنعان خلال العصر البرونزي المبكر. بدأ الاستيطان في الموقع خلال المرحلة الأولى من هذا العصر، ثم اتسعت المدينة وتطورت بصورة واضحة خلال مراحله اللاحقة، حتى أصبحت من أكبر المدن المحصنة في جنوب كنعان في الألف الثالث قبل الميلاد. وكشفت التنقيبات عن مدينة واسعة امتدت على مساحة كبيرة، وضمت مدينة سفلى وأكروبولًا مرتفعًا أي اجزء المرتفع من المدينة قامت عليه منشآت عامة ومبانٍ ضخمة، إلى جانب نظام دفاعي متطور شمل أسوارًا حجرية هائلة بلغ سمك بعضها نحو ستة أمتار،

وهو ما يعكس مستوى التنظيم والقدرة على حشد العمال والموارد الذي وصلت إليه مدن جنوب كنعان في ذلك العصر. كما ظهرت في الأكروبول مبانٍ ذات طابع إداري واحتفالي، وقصور ومنشآت عامة تشير إلى وجود سلطة مركزية تدير المدينة وسكانها. وتكشف طبقات الموقع كذلك عن تطور واضح في تخطيط الشوارع والمباني ووسائل التخزين، مما يجعل يرموث شاهدًا مهمًا على الانتقال من التجمعات السكنية إلى دولة المدينة المنظمة في جنوب بلاد الشام. وفي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد تعرضت المدينة الكبرى للتدمير، وانتهت بذلك مرحلة ازدهارها الأولى، ثم عاد الموقع إلى الاستخدام في فترات لاحقة، وإن لم يستعد المكانة الحضرية التي بلغها في العصر البرونزي المبكر. وتمنح بقايا يرموث الأثرية صورة نادرة عن حجم المدن الكنعانية المبكرة وتنظيمها السياسي والعمراني قبل ظهور الممالك المعروفة في العصور اللاحقة.

شاروحين

كانت شاروحين مدينة كنعانية قديمة في جنوب بلاد الشام، ويُرجَّح ارتباطها أثريًا بموقع تل الفارعة الجنوبي قرب وادي غزة، وإن ظل تحديد المدينة القديمة بالموقع موضع نقاش بين الباحثين. كشفت التنقيبات في الموقع عن استيطان قديم وبقايا عمرانية وتحصينات وفخار يعود إلى مراحل مختلفة من العصر البرونزي، مما يدل على أن المكان كان مركزًا مأهولًا قبل شهرة شاروحين في المصادر المصرية. وتكتسب المدينة أهميتها التاريخية بصورة خاصة في نهاية عصر الهكسوس؛ فبعد أن استولى الفرعون أحمس الأول على عاصمتهم أفاريس في الدلتا، انسحبت جماعات منهم إلى شاروحين، حيث تحصنوا داخل المدينة. لاحقهم الجيش المصري وحاصرهم مدة من

الزمن حتى تمكن أحمس من إخضاع المدينة، وبذلك انتهت آخر مقاومة منظمة للهكسوس خارج مصر. وقد جعل هذا الحدث من شاروحين إحدى المدن المرتبطة مباشرة بمرحلة التحول الكبرى التي أنهت حكم الهكسوس وافتتحت عصر الدولة الحديثة المصرية، ثم استمر الاستيطان في المنطقة خلال فترات لاحقة ويكتسب هذا الحدث أهمية كبيرة لأنه يوضح أن شاروحين لم تكن مجرد مستوطنة صغيرة، بل كانت مركزًا قادرًا على استقبال قوة سياسية وعسكرية كبيرة بعد سقوط حكم الهكسوس في مصر. وقد جعلها موقعها القريب من طرق سيناء وجنوب كنعان حلقة مهمة في العلاقة بين مصر وبلاد الشام بعد الحملة المصرية دخلت المنطقة في مرحلة جديدة من النفوذ المصري. وأصبحت شاروحين ضمن المجال الذي تتحرك فيه الجيوش المصرية نحو كنعان، واستمر ارتباط جنوب فلسطين بالإدارة والسياسة المصرية خلال أجزاء من العصر البرونزي المتأخر. ومع توسع المدن الكنعانية وتغير مراكز القوة انتقلت أهمية المنطقة بين عدة مراكز ولا نملك سلسلة طويلة من ملوك شاروحين تسمح بكتابة تاريخ ملكي متصل، ولذلك من الأدق التعامل معها باعتبارها مركزًا سياسيًا قويًا في جنوب كنعان ارتبط في مرحلة مهمة بمملكة أو كيان محلي، ثم أصبح جزءًا من المجال المصري. ولا ينبغي أن ننسب إليها نظامًا ملكيًا مفصلًا لا تثبته المصادر ومع نهاية العصر البرونزي وتغير النظام السياسي في شرق المتوسط تراجع الدور القديم لشاروحين، وانتقلت مراكز القوة في جنوب بلاد الشام إلى مدن أخرى. لكن ذكراها بقيت مرتبطة بأحد أهم أحداث الانتقال بين عصر الهكسوس والدولة المصرية الحديثة، عندما أصبحت المدينة هدفًا لحملة أحمس الأول خارج حدود مصر.

لبنة

كانت لبنة من مدن جنوب كنعان، ويُرجَّح أن تكون المدينة القديمة قد قامت في موقع تل برنا في منطقة السهل الداخلي لجنوب فلسطين، وإن لم يُحسم هذا التعريف بصورة نهائية. وتشير المكتشفات الأثرية في تل برنا إلى استيطان يعود إلى العصر البرونزي المبكر، ثم تطور الموقع خلال العصر البرونزي الأوسط والمتأخر، قبل أن يستمر استخدامه في العصر الحديدي. وكشفت التنقيبات عن بقايا تحصينات ومبانٍ سكنية وعامة، إضافة إلى منشأة ذات طابع طقسي تعود إلى العصر البرونزي المتأخر، كما ظهرت في الطبقات اللاحقة دلائل على وجود إدارة منظمة ونشاط اقتصادي، من بينها بصمات أختام ملكية تعود إلى العصر الحديدي. وتظهر لبنة في المصادر القديمة بوصفها مدينة ذات مكانة محلية، وترتبط في الرواية الكتابية بأحداث عسكرية خلال فترة الصراع بين مدن المنطقة والممالك المجاورة، ثم أصبحت من مدن مملكة يهوذا. وفي العصر الحديدي الثاني برزت أهميتها مرة أخرى عندما تمردت على ملك يهوذا يهورام، ثم ظهرت ضمن المدن التي واجهت الحملة الآشورية على مملكة يهوذا في عهد سنحاريب. واستمرت أهمية المنطقة في الفترات اللاحقة، بينما تكشف آثار الموقع المرشح لها عن تاريخ طويل من الاستيطان والتحصين والنشاط الديني والإداري في جنوب بلاد الشام.

كما ارتبطت بها حموطال زوجة الملك يوشيا وأم الملكين يهوآحاز وصدقيا بحسب الرواية التوراتية.

ارتبطت لبنة في مراحلها المبكرة بالشبكة الكنعانية لمدن جنوب البلاد، ثم أصبحت ضمن المجال السياسي لمملكة يهوذا. ومع قيام المملكة تحولت المدن

الواقعة على أطرافها إلى نقاط دفاعية تحمي طرق الوصول إلى القدس والمناطق الزراعية الداخلية. وكان هذا الدور مهمًا بصورة خاصة لأن جنوب يهوذا كان منطقة تماس مع القوى القادمة من الساحل ومصر.

تظهر لبنة بوضوح أكبر في تاريخ مملكة يهوذا خلال أواخر العصر الحديدي. فقد أصبحت إحدى المدن التي تمردت على آشور في عهد الملك الآشوري سنحاريب، عندما شن حملته الكبرى على يهوذا سنة ٧٠١ ق.م. وبعد أن أخضع عددًا من مدن المملكة، وصل الجيش الآشوري إلى منطقة لبنة، وارتبط اسمها بالأحداث التي سبقت المواجهة مع القدس.

وتذكر الروايات أن سنحاريب كان موجودًا في لبنة عندما وصلته أخبار اضطراب آخر في المنطقة، بينما كان الجيش الآشوري يضغط على مملكة يهوذا. وهذا يجعل لبنة جزءًا من المشهد العسكري للحملة الآشورية، لا مجرد مدينة زراعية صغيرة.

وبعد الحملة استمرت لبنة ضمن مملكة يهوذا، ثم مرت مع بقية مدن المملكة بالتحولات التي انتهت بالغزو البابلي وسقوط القدس سنة ٥٨٦ ق.م. وقد فقدت المدينة بعد ذلك مكانتها السياسية القديمة، مع استمرار الاستيطان في المنطقة خلال الفترات اللاحقة.

ولا توجد أدلة كافية تجعلنا نتحدث عن لبنة باعتبارها مملكة مستقلة ذات ملوك معروفين. والأدق تقديمها بوصفها مدينة كنعانية ثم يهودية ذات أهمية استراتيجية، برز دورها خصوصًا في حماية طرق جنوب يهوذا وفي أحداث الصراع بين يهوذا وآشور.

لخيش

تعود جذور لخيش إلى الألف الرابع قبل الميلاد، ثم تطورت خلال العصر البرونزي إلى مدينة كنعانية مزدهرة ذات مكانة إقليمية، واستفادت من موقعها الذي ربط مناطق الداخل بالساحل. وتشير المكتشفات إلى وجود علاقات تجارية وثقافية واسعة، فقد عُثر فيها على مصنوعات وواردات جاءت من مصر وقبرص والعالم الميسيني، مما يعكس اتصالها بشبكات التجارة في شرق البحر المتوسط. كما كشفت التنقيبات عن معبد كنعاني من العصر البرونزي المتأخر ظهرت فيه تأثيرات مصرية واضحة، وهو مبنى كبير احتوى على عناصر معمارية ولقى طقسية تعكس التداخل الثقافي بين كنعان ومصر في تلك الفترة. وفي العصر الحديدي أصبحت لخيش مركزًا مهمًا في مملكة يهوذا، وشهدت أعمالًا عمرانية ودينية، من بينها إنشاء مزار صغير داخل منطقة البوابة، ثم إلغاء استخدامه لاحقًا في سياق التغيرات الدينية التي شهدتها المملكة. وتكشف هذه البقايا عن مدينة لم تكن مجرد مركز عسكري، بل كانت أيضًا مركزًا دينيًا وتجاريًا حافظ على أهميته عبر مراحل مختلفة من تاريخ جنوب بلاد الشام.

وكشفت منطقة البوابة أيضًا عن مزار صغير ذي طابع طقسي أُبطل استخدامه لاحقًا، وعُثر فيه على مذبح قُطعت قرونه، ثم وُضع مقعد حجري في المكان، وهي بقايا فُسرت في سياق التغيرات الدينية التي شهدتها مملكة يهوذا، وربطها بعض الباحثين بالإصلاحات الدينية في عهد حزقيا.

يظهر اسم لخيش في المصادر المصرية القديمة، كما عُرفت من خلال رسائل تل العمارنة التي تكشف عن عالم الحكام المحليين في كنعان خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وكانت المدينة في ذلك الوقت تحت سلطة حاكم

محلي، وكانت علاقاتها بمصر جزءًا من نظام التبعية السياسية الذي فرضته الإمبراطورية المصرية على مدن كنعان. لكن هذه التبعية لم تكن تعني الاستقرار؛ فقد كان حكام المدن يتنافسون على الأراضي والموارد، وكانت الاتهامات المتبادلة بالعصيان والتحالف مع الخصوم جزءًا من الحياة السياسية اليومية.

وفي أواخر العصر البرونزي تعرضت لخيش لدمار كبير، ثم أعيد بناؤها واستمرت مركزًا مهمًا. وتشير الآثار إلى وجود مدينة محصنة ومجمعات سكنية ودينية وإدارية، مما يؤكد أن لخيش لم تكن قرية صغيرة، وإنما مركزًا سياسيًا يمتلك مؤسسات وطبقة حاكمة. ومع التحول إلى العصر الحديدي أصبحت المدينة مرتبطة بمملكة يهوذا، واكتسبت أهمية عسكرية متزايدة بسبب موقعها في جنوب البلاد.

وفي العصر الحديدي أصبحت لخيش إحدى أهم مدن مملكة يهوذا بعد القدس. وقد جرى تحصينها بصورة قوية، وأصبحت قاعدة للدفاع عن الحدود الغربية والجنوبية للمملكة. وكانت المدينة تحتوي على بوابة ضخمة ومنشآت إدارية ومخازن وأنظمة مياه، وهو ما يعكس الدور الذي لعبته في تنظيم المنطقة وتأمين الجيش والموارد.

وكانت أهم لحظة في تاريخ لخيش خلال الحملة الآشورية على يهوذا في عهد الملك سنحاريب سنة ٧٠١ ق.م. فقد خرج الجيش الآشوري من بلاد الرافدين باتجاه بلاد الشام، وتمكن من إسقاط عدد من المدن اليهودية قبل أن يركز هجومه على لخيش. وحاصر الآشوريون المدينة واقتحموها، وسجلوا انتصارهم في نقوش ومنحوتات ضخمة عُرفت باسم نقوش لخيش، وهي محفوظة اليوم في المتحف البريطاني. وتُظهر المنحوتات مشاهد حصار

المدينة، وآلات الحرب الآشورية، وأسر السكان وترحيلهم، وتعد من أهم المصادر المصورة عن الحرب في الشرق الأدنى القديم.

بعد سقوط لخيش لم تنتهِ يهوذا، إذ بقيت القدس خارج السيطرة الآشورية المباشرة، لكن المدينة فقدت جزءًا من دورها السابق. واستمرت لخيش في القرون التالية، ثم تعرضت مرة أخرى للدمار خلال الحملة البابلية على مملكة يهوذا في بداية القرن السادس قبل الميلاد. وتكشف رسائل لخيش، المكتوبة على شظايا فخارية، عن الساعات الأخيرة من مقاومة يهوذا أمام البابليين؛ فهي رسائل عسكرية قصيرة كتبها جنود وحكام من المنطقة وهم يتابعون سقوط المدن المحيطة وانتظار وصول الجيش البابلي.

وبذلك أصبحت لخيش واحدة من أفضل المدن التي يمكن من خلالها متابعة تاريخ جنوب بلاد الشام؛ فمن مدينة كنعانية خاضعة للنفوذ المصري، تحولت إلى مركز رئيسي في مملكة يهوذا، ثم أصبحت هدفًا مباشرًا للجيوش الآشورية والبابلية. ولم تكن شهرتها نتيجة موقعها فقط، بل لأن آثارها حفظت لنا مشاهد مكتوبة ومصورة تكشف تفاصيل الحرب والإدارة والحياة السياسية في المنطقة.

تل العجول

كان تل العجول من المراكز المهمة على الساحل الجنوبي لبلاد الشام، وقام عند مصب وادي غزة، بالقرب من الطريق القديم الذي ربط مصر ببلاد كنعان، وهو موقع منح المدينة أهمية كبيرة في التجارة والاتصال بين المنطقتين. ازدهر الموقع خصوصًا خلال العصر البرونزي الأوسط والمتأخر، وكشفت التنقيبات عن مدينة واسعة ضمت أحياء سكنية وقصورًا ومقابر، إضافة إلى لقى غنية تدل على مكانة سكانها واتساع علاقاتها الخارجية. ومن أبرز المكتشفات ثلاث مجموعات من الذهب والحلي النفيسة، إلى جانب عدد كبير من الجعرانات وهي قطع أثرية صغيرة على هيئة الخنفساء والأختام، بينها جعرانات تحمل أسماء ملوك مصريين، كما ظهرت مصنوعات ذات طابع مصري إلى جانب آثار محلية كنعانية، مما يعكس تداخلًا ثقافيًا وتجاريًا واضحًا بين مصر والساحل الجنوبي لبلاد الشام. وتشير المكتشفات أيضًا إلى علاقات تجارية مع قبرص، ظهرت من خلال أنواع من الفخار القبرصي النادر في المنطقة. وعُثر في الموقع على سلسلة من القصور التي تعاقبت خلال العصر البرونزي المتأخر، كما كشفت المقابر عن دفنات غنية بالأسلحة والحلي والأواني، بما يعكس تفاوتًا اجتماعيًا ووجود نخبة ذات مكانة. وقد اقترح عدد من الباحثين أن تل العجول قد يكون موقع شاروحين التي ارتبطت بالهكسوس، إلا أن هذا التعريف لا يزال موضع نقاش، ولذلك يبقى من الأدق عرض تل العجول بوصفه مركزًا برونزيًا مهمًا بحد ذاته، دون الجزم بأنه شاروحين.

ازدهر الموقع بصورة خاصة خلال العصر البرونزي الأوسط والمتأخر، واستفاد من موقعه القريب من الساحل ومن الطرق التي تصل مصر بجنوب

بلاد الشام. وتكشف البقايا الأثرية عن وجود مدينة منظمة، وطبقات سكنية وإدارية، ومنشآت دفاعية، الأمر الذي يدل على أن الموقع كان مركزًا سياسيًا واقتصاديًا مهمًا في المنطقة.

كانت المنطقة المحيطة بتل العجول جزءًا من المجال السياسي الذي تنافست عليه مصر والمراكز الكنعانية المحلية. ومع توسع مصر في بلاد الشام أصبح جنوب كنعان مرتبطًا بالنظام المصري، وكانت المدن المحلية تدير شؤونها بواسطة حكام وأمراء مع الاعتراف بالنفوذ المصري. ولذلك فإن تل العجول يمثل أحد المواقع التي تساعد على فهم المرحلة التي كانت فيها المدن الجنوبية جزءًا من شبكة سياسية واقتصادية مرتبطة بمصر.

ويكتسب الموقع أهمية خاصة بسبب قربه من غزة، التي أصبحت لاحقًا واحدة من أهم المدن في جنوب الساحل. ومع انتقال مركز الثقل السياسي في المنطقة وتغير المدن والموانئ، تراجع دور تل العجول تدريجيًا، وأصبحت غزة المركز الأبرز في المنطقة ولا توجد أدلة كافية تجعلنا نصف تل العجول نفسه بأنه مملكة ذات سلالة ملكية مستقلة. والأدق اعتباره مركزًا حضريًا وسياسيًا مهمًا في جنوب كنعان، ظهر دوره بوضوح في العصر البرونزي، ثم تراجع مع التحولات التي أصابت شبكة المدن الكنعانية في نهاية العصر البرونزي وتكمن قيمة تل العجول في أنه يساعد على استكمال صورة جنوب بلاد الشام التي لا تقتصر على القدس والخليل ولخيش، بل تضم مراكز ساحلية وداخلية متعددة كانت مرتبطة بمصر وبطرق التجارة والحركة العسكرية بين وادي النيل وبلاد الشام.

حبرون مدينة المرتفعات الجنوبية

كانت حبرون، المعروفة اليوم باسم الخليل، من أقدم المراكز الحضرية في جنوب بلاد الشام، وظهرت أهميتها السياسية منذ العصر البرونزي. وتطورت المدينة حول مركز مرتفع في جبال جنوب كنعان، وأصبحت مركزًا لإقليم واسع تحيط به القرى والمستوطنات. وتظهر في المصادر المصرية القديمة ضمن المدن الكنعانية، بينما ارتبط اسمها في الرواية التوراتية بتاريخ الآباء وبدايات مملكة يهوذا تكشف الحفريات في تل حبرون، المعروف بتل الرُّميدة، عن مدينة ذات أهمية واضحة منذ العصور البرونزية. فقد ظهرت في الموقع بقايا استيطان وتحصينات تعود إلى العصر البرونزي المبكر، ثم شهدت المدينة تطورًا أكبر خلال العصر البرونزي الأوسط الثاني، عندما أُقيمت حولها تحصينات ضخمة تدل على نموها وتحولها إلى مركز حضري بارز في المرتفعات الجنوبية. ولم تكن هذه التحصينات مجرد جدران دفاعية، بل تعكس قدرة المدينة على تنظيم مواردها وأعمالها العمرانية في مرحلة شهدت ازدهار المدن الكنعانية في بلاد الشام.

كما تكشف المكتشفات الأثرية عن جوانب متعددة من الحياة في المدينة عبر العصور؛ فقد عُثر على بقايا مبانٍ ومنشآت سكنية، وقبور من فترات مختلفة، إلى جانب مرافق مائية ومنشآت صناعية. وفي الفترات اللاحقة ظهرت في الموقع منشآت مرتبطة بالطقوس، من بينها حمّامات طقسية، إضافة إلى قنوات للمياه وورش لصناعة الفخار، وهي شواهد توضح أن حبرون لم تكن مجرد مركز سياسي أو عسكري، بل كانت مدينة حية استمر فيها السكن والنشاط الاقتصادي والعمراني وتغيرت ملامحها مع تعاقب العصور

كما عُثر في الموقع على منشآت وقبور من فترات مختلفة، منها قبران حجريان من العصر الروماني المتأخر، كما ظهرت منشآت مرتبطة بالمياه والطقوس في منطقة الاستيطان اللاحقة. وفي العصر الثاني للهيكل وُجدت حمّامات طقسية كبيرة (مِقْوَات)، إلى جانب قنوات للمياه وورش فخار ومنشآت أخرى، وهي أدلة مهمة على طبيعة الحياة في حبرون خلال تلك الفترة.

خلال العصر البرونزي كانت حبرون مركزًا سياسيًا محليًا، لكن المعلومات المباشرة عن حكامها أقل من تلك التي نملكها عن حكام مجدو أو شكيم أو جازر. وتظهر المدينة ضمن البيئة السياسية التي كانت تخضع للنفوذ المصري، حيث كان أمراء المدن الكنعانية يحكمون مناطقهم مع الاعتراف بسلطة الفرعون. ولذلك لا نستطيع تقديم سلسلة ملوك مستقلة لحبرون كما نستطيع في بعض الممالك الأخرى؛ والأدق وصفها بأنها مدينة-دولة أو مركز إقليمي كنعاني في مراحلها المبكرة.

تكتسب حبرون أهمية خاصة في الرواية التوراتية، حيث ترتبط بمدينة الخليل وبقصص إبراهيم وإسحاق ويعقوب، كما ترتبط بمغارة المكفيلة التي أصبحت موضعًا دينيًا بالغ الأهمية. لكن هذه الروايات تنتمي إلى تقليد ديني وأدبي تشكل عبر مراحل طويلة، ولا يمكن استخدامها وحدها لإعادة بناء تاريخ سياسي دقيق للمدينة في العصر البرونزي.

وفي العصر الحديدي دخلت حبرون ضمن المجال السياسي لمملكة يهوذا. وترتبط بها الرواية التي تجعل داود ملكًا على يهوذا في حبرون، ثم حكم منها مدة من الزمن قبل انتقال مركز الحكم إلى القدس. ووفق الرواية التوراتية أصبحت حبرون بذلك واحدة من أهم مراكز الحكم في المرحلة المبكرة من

المملكة، كما ارتبطت بالأسرة الملكية وبأحداث الصراع على العرش بعد وفاة شاول.

وبعد انتقال العاصمة إلى القدس لم تفقد حبرون أهميتها. فقد بقيت مركزًا إداريًا ودينيًا مهمًا في جنوب المملكة، واستمرت ضمن شبكة المدن التي تحمي الأراضي الزراعية والطرق الداخلية. وفي عهد مملكة يهوذا أصبحت المنطقة المحيطة بها جزءًا من المجال الذي كان يعتمد عليه اقتصاد المملكة، بينما ظلت المدينة مرتبطة بتقاليدها الدينية والقبلية.

وعندما تعرضت مملكة يهوذا لهجوم سنحاريب سنة ٧٠١ ق.م. كانت مدن الجنوب من بين المناطق التي أصابها الدمار والنهب، وإن كانت المصادر الآشورية لا تقدم لحبرون السرد التفصيلي نفسه الذي قدمته لخيش. ثم جاءت الحملة البابلية في أوائل القرن السادس قبل الميلاد لتضع نهاية لمملكة يهوذا، ودخلت حبرون ضمن الأراضي التي أعيد تنظيمها بعد سقوط القدس.

لكن حبرون لم تختفِ مع سقوط المملكة. فقد استمرت كمركز سكاني وديني، ودخلت في العصور الفارسية ثم الهلنستية والرومانية، وتغيرت طبيعة سكانها ومؤسساتها مع تغير القوى الحاكمة. وبذلك فإن تاريخها السياسي يختلف عن لخيش ومجدو؛ فهي لم تكن قوة عسكرية كبرى ذات سجل حربي طويل، وإنما كانت مركزًا إقليميًا قديمًا حافظ على أهميته عبر انتقال السلطة بين الممالك والإمبراطوريات. وتكمن قيمة حبرون بالنسبة إلى تاريخ بلاد الشام في استمرارية دورها؛ فهي مدينة ذات جذور كنعانية قديمة، ثم أصبحت جزءًا من مملكة يهوذا وارتبطت بمرحلة تأسيس الحكم الملكي فيها، قبل أن تتحول في العصور اللاحقة إلى مركز ديني وحضري استمر وجوده رغم زوال الممالك التي حكمت جنوب بلاد الشام.

جلعاد

كانت جلعاد منطقة جبلية واسعة إلى الشرق من نهر الأردن، امتدت في أوسع تحديداتها من منطقة اليرموك شمالًا نحو وادي أرنون جنوبًا، ومن نهر الأردن غربًا باتجاه البادية شرقًا، وإن اختلف نطاقها وحدودها باختلاف العصور والكيانات السياسية التي سيطرت عليها. وتميزت جلعاد بطبيعتها المرتفعة وكثرة مواردها المائية وخصوبة أجزاء واسعة منها، فانتشرت فيها المراعي والأراضي الصالحة للزراعة، ونمت فيها أشجار الزيتون والكروم والأشجار المثمرة، كما عُرفت المنطقة بغاباتها ومراعيها الواسعة، الأمر الذي جعلها بيئة مناسبة للاستقرار وتربية المواشي. وقد ساعد موقعها بين وادي الأردن والبادية السورية على جعلها منطقة عبور مهمة، إذ التقت فيها طرق تربط بلاد الشام بالمناطق الواقعة شرق الأردن وبالطرق المتجهة نحو دمشق وشمال الجزيرة العربية.

وتشير المواقع الأثرية في جلعاد إلى وجود استيطان قديم وتطور مراكز سكانية فيها خلال العصر البرونزي، ثم ازداد وضوح العمران والتحصين في العصر الحديدي. ولم تكن جلعاد مدينة واحدة أو كيانًا سياسيًا ثابتًا، بل ضمت مجموعة من المدن والمراكز، من أبرزها راموت جلعاد ومَحَنَايِم ويافيش جلعاد، وأصبحت السيطرة عليها مرتبطة بالسيطرة على جزء مهم من طرق شرق الأردن. وفي العصر الحديدي دخلت المنطقة في نطاق الصراع بين إسرائيل وآرام وعمون، وتحولت مدنها الشمالية إلى نقاط مواجهة بين الممالك المتنافسة، ولا سيما بسبب موقعها الحدودي وطرقها الاستراتيجية. وكانت راموت جلعاد من أهم هذه المراكز، إذ أصبحت حصنًا حدوديًا ومركزًا عسكريًا في الصراع الآرامي الإسرائيلي، وتشير الحفريات في تل الرميث إلى

بقايا حصن ومنشآت تعود إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد، وهي فترة شهدت تنافسًا شديدًا على جلعاد.

ولم تقتصر أهمية جلعاد على موقعها العسكري؛ فقد اشتهرت بمواردها الطبيعية ومنتجاتها، ولا سيما بلسم جلعاد، وهو مادة عطرية وطبية ارتبط اسمها بالمنطقة في المصادر القديمة، إلى جانب الزراعة وتربية المواشي. كما ارتبطت بعض مناطقها بمصادر للحديد، وكانت خاماته موجودة في منطقة عجلون في جلعاد، مما يضيف موردًا آخر إلى أهمية المنطقة الاقتصادية.

وتذكر الرواية التوراتية جلعاد ضمن الأراضي التي استقرت فيها قبائل إسرائيل شرقي نهر الأردن، وأصبح الجزء الأكبر منها مرتبطًا بقبيلتي رأوبين وجاد ونصف سبط منسى. ومع قيام المملكة الإسرائيلية تحولت جلعاد إلى منطقة حدودية مهمة، لأنها كانت تواجه الممالك الآرامية في الشمال والشمال الشرقي. ولذلك لم تكن السيطرة عليها مستقرة؛ فكلما اشتد نفوذ إسرائيل توسعت فيها، وكلما قويت آرام دمشق تعرضت مراكزها للهجوم.

وكانت راموت جلعاد من أهم المدن في المنطقة، وتحولت إلى قلعة حدودية ومركز للصراع بين إسرائيل وآرام دمشق. وتذكر الروايات أن آخاب ملك إسرائيل شارك في معركة لاستعادتها من الآراميين، وقُتل في تلك الحملة، ثم عاد الصراع عليها في عهد خلفائه. ويكشف ذلك أن جلعاد كانت أكثر من منطقة زراعية؛ فقد كانت حدودًا عسكرية يتحدد من خلالها ميزان القوى بين إسرائيل ودمشق وفي القرن التاسع قبل الميلاد اشتد ضغط آرام دمشق على جلعاد، وتعرضت مدنها لغارات وحروب متكررة. ثم تغير الوضع عندما توسعت آشور غربًا، فأصبحت جلعاد جزءًا من الأراضي التي تنافست عليها إسرائيل وآرام وآشور. وفي عهد تغلاث فلاسر الثالث تعرضت مناطق شرقي

الأردن لحملات آشورية، وانتهى الأمر بضم أجزاء واسعة منها إلى الإمبراطورية الآشورية وترحيل سكانها.

وهكذا لم تكن جلعاد مملكة واحدة يمكن وضعها في قائمة الممالك إلى جانب حماة أو دمشق، بل كانت إقليمًا استراتيجيًا نشأت فيه مراكز وكيانات سياسية متعددة. وتكمن أهميتها في تاريخ الصراع على شرقي الأردن، وفي كونها منطقة تماس بين إسرائيل وآرام وعمون، ثم بين هذه القوى والإمبراطوريات الآشورية والبابلية.

رحوب

كانت رحوب، أو بيت رحوب، كيانًا آراميًا صغيرًا في شمال بلاد الشام، ارتبط اسمه بالمنطقة الواقعة إلى جوار دان في أقصى الشمال، ويبدو أن نفوذه امتد على نطاق من الأراضي والطرق الشمالية التي تصل بين الداخل الشامي ووادي البقاع ومناطق أعالي الأردن. ولا يمكن تحديد حدود المملكة أو مركزها بدقة، إذ لم يُحسم موقع عاصمتها أثريًا، وقد طُرحت مواقع عدة بوصفها احتمالات، من بينها بانياس وحُنين ومناطق في البقاع، من دون دليل نهائي يرجّح أحدها.

وتظهر رحوب في المصادر القديمة بوصفها قوة سياسية قائمة بذاتها، كما يرتبط اسمها بمدينة أو إقليم كان يُعرف ببيت رحوب. وفي رواية هجوم قبيلة دان على لايش، وُصفت لايش بأنها تقع في سهل يتبع لبيت رحوب، مما يعكس قرب الكيان الرحّوبي من هذه المدينة الشمالية وموقعه في المجال السياسي للمنطقة. ويشير ورود رحوب في قوائم جغرافية قديمة، ومن بينها

قوائم تحتمس الثالث، إلى أن الاسم كان معروفًا قبل العصر الآرامي المتأخر، وإن كان تحديد الموقع المقصود في هذه القوائم لا يزال موضع نقاش.

وفي عهد داود برزت رحوب بوضوح أكبر في الأحداث السياسية، عندما انضمت إلى القوى الآرامية التي استعان بها العمونيون لمواجهة الجيش الإسرائيلي. يذكر النص أن بني عمون استأجروا رجالًا من بيت رحوب ومن صوبة، إلى جانب قوات من معكة وطوب، لتشكيل قوة كبيرة في مواجهة داود، ثم واجهتهم القوات الإسرائيلية في معركة انتهت بهزيمة الحلفاء الآراميين وانسحابهم. وتكشف هذه المشاركة أن رحوب، رغم صغرها مقارنة بالممالك الآرامية الكبرى، كانت تمتلك قوة عسكرية تسمح لها بالدخول في تحالفات إقليمية والتأثير في صراعات المنطقة.

ولا ينبغي الخلط بين هذه المملكة وبين هدد عزر بن رحوب، والد ملك آرام صوبة، الذي يرد اسمه في سياق مختلف تمامًا؛ كما لا يصح إسناد الآثار المكتشفة في تل رحوب بوادي بيسان إلى مملكة بيت رحوب من دون دليل، فاسم رحوب تكرر في أكثر من موضع في بلاد الشام. وبقيت رحوب، لذلك، واحدة من الكيانات الآرامية التي نعرف وجودها من خلال النصوص أكثر مما نعرف تفاصيلها من خلال آثارها المباشرة.

باشان إقليم شمال شرقي الأردن

كانت باشان إقليمًا واسعًا في شمال شرقي الأردن، واشتهرت منذ العصور القديمة بأراضيها الخصبة ومراعيها، لكنها لم تكن مجرد منطقة زراعية؛ فقد ظهرت فيها مراكز سياسية وحصون سيطرت على الطرق الممتدة بين جنوب سورية وشرقي الأردن. وتختلف حدود باشان بحسب الفترة التاريخية، ولذلك لا يمكن التعامل معها كدولة ذات حدود ثابتة طوال تاريخها.

زادت أهميتها بسبب موقعها بين حوران ودمشق والجولان وشرق الأردن فكانت أراضيها جزءاً من شبكة طرق ومسالك ربطت هذه المناطق وجعلت السيطرة عليها ذات قيمة اقتصادية وعسكرية إلى جانب خصوبة أراضيها

ترتبط أقدم صورة سياسية معروفة لباشان بالمملكة التي حكمها عوج ملك باشان وفق الرواية التوراتية. وتذكر الرواية أن عوج كان يحكم من عشتروت وأدرعي، وأن مملكته امتدت على مساحة واسعة من شمال شرقي الأردن. ومع أن شخصية عوج تنتمي إلى التقليد التوراتي ولا نملك من خارج هذا التقليد سلسلة وثائق مستقلة تثبت تفاصيل حكمه، فإن أسماء المدن والمواقع المرتبطة بباشان تظهر في مصادر وجغرافيا أقدم وأوسع، ما يؤكد أن المنطقة كانت ذات أهمية سياسية فعلية.

وخلال العصر الحديدي دخلت باشان في المجال السياسي لمملكة إسرائيل. وأصبحت المدن الواقعة في شمال شرقي الأردن جزءًا من الأراضي التي سيطرت عليها المملكة، ثم تحولت إلى منطقة حدودية تواجه الممالك الآرامية. وكانت عشتروت من أهم مراكزها، بينما ارتبطت مناطق أخرى مثل إدرعي والجولان بتاريخها السياسي والعسكري.

ومع صعود آرام دمشق أصبحت باشان ساحة صراع بين المملكتين. فقد كان الطريق عبر شمال شرقي الأردن مهمًا للجيوش والتجارة، والسيطرة عليه تعني تهديد قلب إسرائيل من الشرق والشمال. ولهذا تعرضت المنطقة لحملات آرامية متكررة، ثم دخلت في نطاق الصراع الآشوري عندما بدأت آشور بتفكيك الممالك السورية والإسرائيلية وفي القرن الثامن قبل الميلاد، خلال حملات تغلاث فلاسر الثالث، تعرضت الأراضي الشمالية لمملكة إسرائيل للغزو، ووقعت مناطق الجليل وجلعاد وباشان ضمن موجة الفتوحات الآشورية. ونُقل جزء من سكانها إلى مناطق أخرى داخل الإمبراطورية، وأعيد تنظيم الأراضي وفق الإدارة الآشورية. وبذلك انتهى ارتباط باشان بمملكة إسرائيل، وأصبحت جزءًا من العالم الإمبراطوري الآشوري واستمر اسم باشان في الجغرافيا التاريخية للمنطقة بعد زوال الممالك القديمة. فقد احتفظت المنطقة بأهميتها الزراعية والاستراتيجية في العصور اللاحقة، لكن اسمها لم يعد يشير إلى مملكة مستقلة. ولذلك فإن الأدق تقديم باشان كإقليم ذي تاريخ سياسي وعسكري مهم، لا كدولة مستقلة ذات سلالة ملوك طويلة.

معكة

ظهرت معكة في شمال بلاد الشام وشرقيه بوصفها كيانًا سياسيًا صغيرًا ارتبط بمنطقة تقع إلى الجنوب من دمشق وشمال الجليل وشرقي الأردن. وتظهر في المصادر القديمة باسم معكة/معكة الآرامية، وكانت واحدة من الدويلات التي نشأت في البيئة السياسية الآرامية خلال العصر الحديدي. ولم تكن بحجم دمشق أو حماة، لكنها ظهرت في الصراعات الإقليمية بسبب موقعها بين الممالك الكبرى.

تذكر المصادر أن معكة كانت تحكمها أسرة ملكية،و كان تلماي ملكها وأنها ارتبطت بالكيانات الآرامية التي انتشرت في المنطقة بعد انهيار النظام السياسي في نهاية العصر البرونزي. وكانت حدودها تتغير تبعًا لقوة جيرانها، ولا سيما آرام دمشق وإسرائيل وعمون. ولذلك يصعب تحديد مساحة ثابتة للمملكة، لكن موقعها العام يجعلها جزءًا من منطقة التماس بين شمال فلسطين وجنوب سورية وشرقي الأردن.

وتظهر معكة بوضوح في أحداث القرن العاشر قبل الميلاد عندما دخلت في تحالف عسكري مع عمون ضد مملكة إسرائيل. فعندما أعلن ملك عمون الحرب على إسرائيل، استعان بجيوش من آرام بيت رحوب وآرام صوبة ومعكة، بالإضافة إلى قوات أخرى. وتكشف هذه الحملة أن معكة كانت تملك قوة عسكرية مستقلة، وأنها كانت قادرة على الدخول في تحالفات إقليمية عندما اقتضت مصالحها ذلك.

واجهت جيوش التحالف القوات الإسرائيلية، وانتهت المعركة بانتصار إسرائيل وفق الرواية التوراتية، ثم تراجعت القوات الآرامية. ولم يكن هذا

الحدث مجرد مواجهة بين إسرائيل وعمون؛ فهو يوضح شبكة التحالفات التي كانت تربط الدويلات الآرامية ببعضها، ويظهر أن معكة كانت جزءًا من نظام سياسي متعدد المراكز، تتغير فيه التحالفات بحسب الخطر والمصلحة.

ومع نمو قوة آرام دمشق تقلصت مساحة الاستقلال أمام الممالك الآرامية الأصغر. وأصبحت معكة تقع في منطقة نفوذ القوى الأكبر، ثم دخلت تدريجيًا في المجال السياسي للممالك التي سيطرت على شمال شرقي الأردن. وفي المراحل اللاحقة لم تعد تظهر بوصفها مملكة مستقلة ذات وزن كبير، بل بقي اسمها مرتبطًا بالمنطقة والسكان الذين حملوا اسمها.

ولهذا فإن أهمية معكة لا تأتي من اتساع أراضيها، وإنما من كونها مثالًا واضحًا على الدويلات الآرامية الصغيرة التي لعبت دورًا في صراعات القرن العاشر والتاسع قبل الميلاد. وقد أظهرت قدرتها على التحالف والمشاركة العسكرية، لكنها لم تستطع المحافظة على استقلالها عندما بدأت الممالك الكبرى، ثم الإمبراطوريات الآشورية، في فرض سيطرتها على المنطقة.

صوبة

كانت مملكة صوبة واحدة من الممالك الآرامية التي ظهرت في بلاد الشام خلال العصر الحديدي، تربطها كثير من طروحات الباحثين في المنطقة الواقعة شمال دمشق باتجاه البقاع وجنوب سوريا، مع امتداد نفوذها شرقاً نحو الفرات. وتبقى حدودها الدقيقة موضع نقاش، لأن المصادر القديمة لا تقدم وصفًا جغرافيًا متكاملًا لها، كما أن تاريخها وصلنا بصورة أساسية من الروايات التوراتية وبعض المقارنات التاريخية.

برزت صوبة في القرن العاشر قبل الميلاد عندما أصبحت قوة إقليمية قادرة على الدخول في صراعات مع الممالك المجاورة. وتظهر بصورة خاصة في عهد داود ملك إسرائيل، الذي خاض عدة حملات ضدها. وتذكر الرواية أن ملك صوبة كان هدد عزر بن رحوب، وأن داود واجهه في منطقة قريبة من نهر الفرات، في سياق محاولة المملكة الإسرائيلية توسيع نفوذها شمالًا.

كان الصراع مع صوبة جزءًا من توسع المملكة الإسرائيلية في عهد داود، لكنه يكشف في الوقت نفسه أن إسرائيل لم تكن القوة الوحيدة التي تحاول السيطرة على الطرق الشمالية. فقد كانت صوبة تمتلك جيشًا يعتمد على العربات والفرسان، وامتلكت قدرة على شن الحملات بعيدًا عن مركزها. كما ارتبطت بعلاقات وتحالفات مع ممالك آرامية أخرى، مما جعل إسقاطها عملية ذات أهمية استراتيجية.

وفي إحدى المواجهات هزم داود جيش صوبة، واستولى على عدد من العربات والخيول، ثم فرض نفوذه على مناطق كانت خاضعة لملك صوبة. وتذكر الرواية أن آرام دمشق تدخلت لمساعدة صوبة في مرحلة لاحقة، لكن

القوات الإسرائيلية هزمت الآراميين أيضًا. ومن هنا يظهر أن الصراع لم يكن بين مملكتين فقط؛ بل كان جزءًا من إعادة تشكيل ميزان القوى في شمال بلاد الشام.

وفي عهد خلفاء داود تراجعت صوبة تدريجيًا، بينما صعدت آرام دمشق لتصبح القوة الآرامية الكبرى في جنوب سورية. ويبدو أن أجزاء من أراضي صوبة دخلت في نطاق نفوذ دمشق، بينما اختفى اسمها تدريجيًا من السجل السياسي بوصفها مملكة مستقلة. وهذا التحول يعكس نمطًا متكررًا في تاريخ العصر الحديدي ظهور دويلات آرامية صغيرة، ثم توسع إحداها وابتلاع جيرانها، حتى أصبحت دمشق القوة المهيمنة على القسم الجنوبي من بلاد الشام الآرامية.

وفي عهد سليمان ظهر اسم صوبة مرة أخرى من خلال رَزون بن أليداع الذي كان قد فر من ملك صوبة ثم تمكن من الاستيلاء على دمشق وأصبح خصماً لسليمان وتكمن أهمية صوبة في أنها تكشف عن مرحلة مبكرة من تشكل القوى الآرامية قبل صعود دمشق إلى موقع الهيمنة. فهي كانت مملكة قادرة على خوض حروب بعيدة والتحالف مع جيرانها، وامتلكت موارد عسكرية جعلتها منافسًا للمملكة الإسرائيلية الناشئة. ثم تراجعت أمام صعود دمشق، ليختفي كيانها السياسي المستقل بينما استمر اسمها في المصادر بوصفه شاهدًا على إحدى الممالك الآرامية التي سبقت العصر الذهبي لآرام دمشق.

آرام دمشق

كانت دمشق واحدة من أقدم المدن الكبرى في بلاد الشام، لكن أهم تحول في تاريخها السياسي وقع خلال العصر الحديدي، عندما أصبحت عاصمة لمملكة آرامية قوية عُرفت باسم آرام دمشق. ومنذ ذلك الوقت لم تعد دمشق مجرد مدينة مهمة في جنوب بلاد الشام، بل أصبحت مركزًا لقوة سياسية نافست إسرائيل وحماة والممالك الآرامية الأخرى، ودخلت في صراع مباشر مع آشور، حتى غدت خلال فترات من القرن التاسع والثامن قبل الميلاد القوة الآرامية الأبرز في جنوب بلاد الشام.

يظهر اسم دمشق في المصادر القديمة قبل قيام المملكة الآرامية بقرون طويلة. فقد كانت المدينة معروفة في الألف الثاني قبل الميلاد، وظهرت في المصادر المصرية ضمن المدن والبلدان الواقعة في بلاد الشام. كما ارتبطت بالطرق التي تصل جنوب سورية بشمالها وبالداخل الرافدي، الأمر الذي منحها أهمية اقتصادية وسياسية مبكرة. لكن المصادر لا تسمح لنا بإعادة بناء تاريخ متصل لدمشق خلال العصر البرونزي، ولذلك تبدأ صورتها السياسية الواضحة بصورة أكبر مع ظهور الممالك الآرامية في العصر الحديدي.

بعد انهيار النظام السياسي في نهاية العصر البرونزي ظهرت في بلاد الشام مجموعة من الممالك الآرامية، وكان من أهمها آرام دمشق. وقد أصبحت دمشق مركز هذه المملكة، وبدأت توسع نفوذها على المناطق المحيطة بها. ولم تكن المملكة آرامية بمعنى أن جميع سكانها كانوا من جماعة واحدة؛ فقد عاشت فيها مجموعات سكانية مختلفة، لكن اللغة والثقافة الآرامية أصبحتا عنصرين أساسيين في جهاز الحكم وفي هوية المملكة السياسية.

كان من أوائل ملوك دمشق المعروفين في المصادر أدد-أدري، الذي يظهر في سجلات الملك الآشوري شلمنصر الثالث في القرن التاسع قبل الميلاد. وتذكر المصادر الآشورية اسم دمشق ضمن القوى التي واجهت التوسع الآشوري، وكان أدد-أدري من أبرز قادة التحالف الذي جمع عددًا من ملوك بلاد الشام لمواجهة الجيش الآشوري.

وقعت المواجهة الكبرى في معركة قرقر سنة ٨٥٣ ق.م.، عندما تقدم شلمنصر الثالث نحو شمال سورية. واجهته قوة تحالفية ضمت ملوكًا من دمشق وحماة وإسرائيل وممالك أخرى، وكان أدد-أدري أحد أبرز القادة فيها. وذكرت حوليات شلمنصر أعدادًا ضخمة من الجنود والعربات التي نسبتها إلى الحلفاء. ورغم أن الملك الآشوري أعلن انتصاره، فإن النتيجة الفعلية كانت عجز آشور عن تحويل الحملة إلى سيطرة دائمة على الممالك السورية؛ فعادت دمشق وحلفاؤها إلى ممارسة نفوذهم بعد انتهاء الحملة.

كان أدد-أدري يمثل مرحلة القوة العسكرية المبكرة لآرام دمشق. وبعد وفاته ظهر برهدد في المصادر بوصفه أحد ملوك دمشق، ثم جاء الملك الأكثر شهرة في تاريخ المملكة، حزائيل.

استولى حزائيل على عرش دمشق في ظروف سياسية مضطربة. وتذكر المصادر الآشورية أنه كان في الأصل أحد رجال البلاط، ثم أصبح ملكًا بعد وفاة سيده، بينما تقدم الرواية التوراتية صورة مختلفة تتعلق بقتل الملك والاستيلاء على العرش. وبغض النظر عن التفاصيل التي لا يمكن التحقق منها كلها، فإن وصول حزائيل إلى الحكم كان نقطة تحول حقيقية؛ فقد أصبحت دمشق في عهده أكثر قوة واتساعًا، ونجح في توسيع نفوذها على حساب إسرائيل ومناطق أخرى في جنوب بلاد الشام.

واجه حزائيل المملكة الإسرائيلية، وحقق انتصارات كبيرة عليها. وتذكر الروايات أن قواته هاجمت مناطق واسعة من مملكة إسرائيل، واستولت على عدد من المدن، حتى أصبحت دمشق القوة التي تضغط باستمرار على المملكة الإسرائيلية. ولم يكن هذا التوسع مجرد سلسلة من الغارات؛ فقد أدى إلى تغير ميزان القوى في المنطقة، وتراجع نفوذ إسرائيل في مناطق كانت قد سيطرت عليها خلال العقود السابقة.

امتد نفوذ حزائيل أيضًا إلى الساحل الفينيقي، ودخل في صراعات مع جت وغيرها من المدن والمناطق التابعة لمملكة إسرائيل. وتذكر الرواية التوراتية أنه هاجم جت واستولى عليها، ثم اتجه نحو القدس، واضطر ملك يهوذا إلى تقديم ذهب وفضة من خزائن المعبد والقصر لتجنب احتلال المدينة. وبذلك أصبحت دمشق في عهد حزائيل قوة قادرة على تهديد الممالك من دمشق نفسها حتى جنوب بلاد الشام.

لكن صعود دمشق لم يكن منفصلًا عن الصراع مع آشور. ففي عهد حزائيل شن الملك الآشوري شلمنصر الثالث حملة على دمشق، ووصل إلى أراضيها وحاصرها، وذكر في حولياته أنه حاصر حزائيل واستولى على عدد من المدن والقرى وأخذ غنائم كثيرة. ومع ذلك لم يتمكن من إسقاط دمشق، وبقيت المملكة مستقلة. ويكشف هذا الحدث عن قوة المملكة؛ فقد استطاعت مواجهة الإمبراطورية الآشورية في مرحلة كانت آشور فيها تتوسع بقوة نحو الغرب.

بعد وفاة حزائيل بدأ نفوذ دمشق يتراجع تدريجيًا. تولى ابنه بن هدد الثالث الحكم، وواجه مملكة إسرائيل التي بدأت تستعيد جزءًا من قوتها. وفي هذه المرحلة تغير ميزان القوى، ونجح الملوك الإسرائيليون في استعادة بعض المدن والأراضي التي فقدوها في عهد حزائيل. وتذكر الرواية التوراتية أن

الملك يوآحاز تعرض لضغط شديد من دمشق، بينما تمكن ابنه يوآش لاحقًا من استعادة بعض المناطق التي كانت قد سقطت في يد الآراميين.

وفي القرن الثامن قبل الميلاد ظهر ملك آخر من أهم ملوك دمشق، هو رصين. وكان عهده آخر مرحلة كبرى من استقلال آرام دمشق. ففي هذه الفترة كانت آشور قد أصبحت أكثر قوة، وأصبح الملك تغلاث فلاسر الثالث يتبع سياسة تقوم على إخضاع الممالك السورية واحدة بعد أخرى، بدل الاكتفاء بالحصول على الجزية منها.

حاول رصين مواجهة الخطر الآشوري من خلال التحالف مع فقح بن رمليا ملك إسرائيل. وشن الملكان حملة على مملكة يهوذا في عهد الملك آحاز، فيما عرف في الرواية التوراتية بالحرب الآرامية-الإفرايمية.

(نسبة إلى إفرايم أحد أبرز أسباط مملكة اسرائيل الشمالية التي كان اسم إفرايم يستخدم أحياناً للدلالة عنها)

كان هدف الحملة الضغط على يهوذا وإجبارها على الانضمام إلى التحالف أو تغيير سياستها، لكن آحاز اختار الاستنجاد بآشور بدل الانضمام إلى خصومها كان هذا القرار كارثيًا بالنسبة إلى دمشق وإسرائيل؛ فقد وجد تغلاث فلاسر الثالث فرصة للتدخل في بلاد الشام تحت ذريعة مساعدة يهوذا. فتقدم الجيش الآشوري، واستولى على مناطق واسعة في سورية وفلسطين، ثم وصل إلى دمشق نفسها. وفي ٧٣٢ ق.م. تقريبًا سقطت دمشق أمام القوات الآشورية، وقُتل رصين، وانتهى بذلك استقلال مملكة آرام دمشق.

لم تكتفِ آشور بإسقاط الملك؛ فقد أعادت تنظيم أراضي المملكة، ونقلت السكان، وجعلت دمشق مركزًا إداريًا داخل الإمبراطورية الآشورية. وهكذا تحولت المدينة التي كانت عاصمة واحدة من أقوى الممالك الآرامية إلى مركز

تابع لإمبراطورية أجنبية. وكان سقوط دمشق حدثًا بالغ الأهمية، لأنه أنهى واحدة من آخر القوى المستقلة الكبرى التي كانت قادرة على مقاومة آشور في جنوب بلاد الشام.

ومع سقوط المملكة لم تختفِ الآرامية ولا دمشق. على العكس، استمرت المدينة في أداء دور مهم داخل الإمبراطوريات التي تعاقبت على المنطقة. وانتشرت اللغة الآرامية بصورة متزايدة، وأصبحت في العصور اللاحقة إحدى أهم لغات الإدارة والتجارة في الشرق الأدنى. وهكذا كان إرث آرام دمشق أكبر من حدود المملكة نفسها؛ فقد أصبحت دمشق واحدة من المراكز التي ارتبط بها اسم الآراميين، واستمر حضور المدينة في التاريخ السوري بعد زوال الدولة التي حملت اسمها.

وتكشف قصة آرام دمشق عن واحدة من أهم مراحل تاريخ بلاد الشام؛ فمن مملكة آرامية نشأت بعد انهيار عالم العصر البرونزي، تحولت دمشق إلى قوة إقليمية تنافس إسرائيل وحماة والممالك الفينيقية، ثم استطاعت في عهد حزائيل أن تبلغ ذروة نفوذها، قبل أن تجد نفسها أمام إمبراطورية آشورية لا تسمح ببقاء القوى الإقليمية المستقلة. وبسقوط رصين سنة ٧٣٢ ق.م. انتهت المملكة، لكن دمشق نفسها بقيت، وانتقل دورها من عاصمة لمملكة آرامية مستقلة إلى مدينة محورية في تاريخ الإمبراطوريات التي حكمت بلاد الشام.

لم تكن الحضارات هي التي منحت الأرض قيمتها

بل الأرض هي التي منحت الحضارات فرصة أن تولد

حين يعبر الزمن آخر أبوابه

وهنا تنتهي السلسلة ليس لأن الماضي انتهى، بل لأننا بلغنا الحد الذي استطعنا أن نروي عنده ما وصل إلينا أما ما بقي، فما زال هناك.

في المدن التي لم تتوقف عن الحياة

وفي المواقع التي تنتظر التنقيب

وفي المتاحف، وفي النقوش

وفي الكتب التي ستُكتب بعدنا

وفي الأسئلة التي سيطرحها قارئ لم يولد بعد.

وربما أجمل ما يمكن أن نفعله بالماضي ليس أن نزعم أننا امتلكناه، بل أن نحافظ على حقه في أن يفاجئنا.

لقد بدأنا هذه الرحلة بحثًا عن حكايات بعيدة.

وننهيها ونحن نعرف أن البعيد لم يكن بعيدًا كما ظننا.

فبيننا وبينه آلاف السنين، نعم

لكن بيننا وبينه أيضًا مدينة، وطريق، واسم، ونهر، وذاكرة.

والآن، بعد أن سكتت أصوات الملوك والجيوش، وبقيت الأسئلة مفتوحة، يمكننا أن نغلق الكتاب لا لأن الحكاية انتهت، بل لأن الدور جاء علينا أن نتركها تُروى من جديد.

قد يأتي يوم تُفتح فيه طبقة جديدة من الماضي، فتتغير صورة مملكة عرفناها، أو يظهر اسم حاكم لم نكن نعرفه، أو تتضح علاقة بين مدينتين ظننا أنهما بعيدتان عن بعضهما.

وهذا ليس نقصًا في التاريخ بل هو ما يجعل التاريخ حيًا.

لأن الماضي ليس كتابًا اكتملت صفحاته، وإنما معرفةٌ تتسع كلما اكتشفنا شيئًا جديدًا، وكلما تعلمنا أن نميّز بين ما نعرفه حقًا وما نظنه، وبين ما تؤكده الشواهد وما تتركه لنا الأسئلة.

أما نحن، فنغادر الآن.

نغادر الممالك التي دخلنا أبوابها

والمدن التي تتبعنا أخبارها

والملوك الذين ظهروا ثم غابوا

ونترك لكل قارئ أن يحمل معه ما يريد من هذه الرحلة.

ربما يحمل اسم مدينة.

ربما قصة ملك.

ربما معركة.

وربما مجرد إحساس بأن المكان الذي يعيش فيه ليس جديدًا كما يبدو.

وهنا نصل إلى آخر الصفحة.

لا لأن الحكاية انتهت، بل لأن للكلمات حدًّا، وللرحلات لحظة ينبغي عندها أن نتوقف قليلًا، وننظر إلى الطريق الذي قطعناه.

كانت رحلة طويلة، حملت بين صفحاتها أسئلة أكثر مما حملت من أجوبة، وفتحت أبوابًا لم نكن نعرف إلى أين تقودنا. وكلما ظننا أننا اقتربنا من النهاية، اكتشفنا أن وراءها بابًا آخر، وأن المعرفة الحقيقية لا تُغلق كتابًا، بل تفتح في داخلنا نافذة جديدة والآن نضع النقطة الأخيرة.

نغلق الصفحات بهدوء، ونترك ما قرأناه يستقر في مكانه؛ بعضه سيبقى في الذاكرة، وبعضه سيتحول إلى سؤال، وبعضه ربما سيعود إلينا يومًا في لحظة لم نتوقعها.

وهذه أجمل نهاية يمكن أن تمنحها رحلة طويلة

أن تنتهي على الورق ولا تنتهي فينا.

انتهت سلسلة من رحم الأرض وبقيت الحكاية، ما دام هناك من يريد أن يقرأ.

المراجع

١. Bryce, Trevor. The World of the Neo-Hittite Kingdoms: A Political and Military History. Oxford University Press, 2012.

٢. Gibson, John C. L. Textbook of Syrian Semitic Inscriptions, Volume I: Hebrew and Moabite Inscriptions. Oxford University Press, 1971.

٣. Donner, Herbert. History of the Nation of Israel, Volume I: From the Beginnings to the Monarchy. Eisenbrauns, 1997.

٤. Markoe, Glenn. Phoenicians. University of California Press, 2000.

٥. Stern, Ephraim. Archaeology of the Land of the Bible, Volume II: The Assyrian, Babylonian, and Persian Periods, 732–332 BCE. Yale University Press, 2001.

٦. Liverani, Mario. Israel's History and the History of Israel. Equinox, 2005.

٧. Kitchen, Kenneth A. On the Reliability of the Old Testament. Eerdmans, 2003.

٨. Younger, K. Lawson Jr. A Political History of the Arameans: From Their Origins to the End of Their Polities. SBL Press, 2016.

٩. Hallo, William W., ed. The Context of Scripture, Volume II: Monumental Inscriptions from the Biblical World. Brill, 2000.

١٠. Grayson, A. Kirk. Assyrian Rulers of the Early First Millennium BC I (1114–859 BC). University of Toronto Press, 1991.

الكاتبة أماني سليمان

سوريا محافظة الحسكة مدينة القامشلي

مواليد ٢/٨/١٩٨٨

درست في كلية العلوم قسم الكيمياء

أول مؤلفاتها كتاب خواطر بعنوان همسات النسمات

الثاني كتاب خواطر بعنوان صدى الأفكار

الثالث رواية بعنوان يضمدها الأمل

الرابع كتاب خواطر بعنوان عندما تتحدث الروح

الخامس رواية بعنوان أرواح تتأرجح على كفوف السحر

السادس كتاب خواطر بعنوان يا حزني السعيد

السابع رواية بعنوان قبل أن يراها

الثامن قصة بعنوان وكانت الصدمة

التاسع رواية بعنوان ترتيب القدر

العاشر مسرحية بعنوان النبوءة

الحادي عشر كتاب خواطر بعنوان كِلانا يبحث عني

الثاني عشر رواية بعنوان حين تكلم الموت

الثالث عشر رواية بعنوان نالت مرادها

الرابع عشر رواية بعنوان سلام فوق رماد الماضي

الخامس عشر خواطر بعنوان انا امرأة لا يعبرها الزمن

السادس عشر خواطر بعنوان على مائدة الوجدان

السابع عشر سكتشات مسرحية بعنوان من رحم المعاناة

الثامن عشر مونولوجات مسرحية بعنوان القوة تنبع من الداخل

التاسع عشر مونولوجات مسرحية بعنوان أنا والحياة

العشرون مونولوجات مسرحية بعنوان علمتني الحياة

الحادي والعشرون رواية بعنوان لم نخرج سالمين

الثاني والعشرون مسرحية بعنوان مقهى النصائح المجّانية

الثالث والعشرون مسرحية غنائية بعنوان ساحة المطر

الرابع والعشرون مسرحية بعنوان مكتب تصليح القدر

الخامس و العشرون مسرحية بعنوان مقهى الرسائل غير المرسلة

السادس و العشرون مسرحية بعنوان شركة ضائعة بين القرارات

السابع و العشرون مسرحية غنائية بعنوان قناديل المنى

الثامن و العشرون خمس سكتشات مسرحية بعنوان مجرات مضيئة

التاسع و العشرون مسرحية بعنوان صندوق الاصوات القديمة

الثلاثون كتاب خواطر بعنوان مسافة نجاة

الحادي و الثلاثون كتاب خواطر بعنوان ألوان قلبي

الثاني و الثلاثون رواية بعنوان على هامش القرار

الثالث و الثلاثون مسرحية بعنوان يوميات عريس مفلس

الرابع و الثلاثون مسرحية بعنوان عريس بالغلط

الخامس و الثلاثون مسرحية مزاد العرسان

السادس و الثلاثون مسرحية يوم بدون تمثيل

السابع و الثلاثون مسرحية غلط بغلط

الثامن و الثلاثون قصة بعنوان أجساد من كلمات

التاسع والثلاثون مسرحية حلم ع السريع

الاربعون مسرحية غنائية للأطفال المدينة التي تضحك

الواحد و الاربعون مسرحية غنائية بعنوان مدينة تزهر حين نحب

الثاني و الاربعون مسرحية بعنوان كل الطرق تؤدي إلي

الثالث و الاربعون مسرحية بعنوان آخر بث

الرابع و الاربعون مسرحية بعنوان محكمة الضمير

الخامس و الاربعون مسرحية بعنوان العريس الضايع

السادس والاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بدون تجميل

السابع و الاربعون مونولوجات مسرحية بعنوان بقايا انسان

الثامن و الاربعون مسرحية بعنوان مدينة الكذب

التاسع و الاربعون مسرحية بعنوان معجب سبع نجوم

الخمسون مسرحية بعنوان الجلسة الأخيرة

الواحد و الخمسون كتاب خواطر بعنوان قيد من حرير

الثاني والخمسون كتاب بعنوان من المجد إلى الطين(١)الحضارة السومرية

الثالث و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٢)الحضارة الأكدية

الرابع و الخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٣)الحضارة البابلية

الخامس والخمسون كتاب بعنوان من الطين إلى المجد(٤)الحضارة الآشورية

السادس والخمسون كتاب بعنوان وصفات الحب

السابع و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(١)حضارتي إيبلا وماري

الثامن و الخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٢)اوغاريت والآراميون

التاسع والخمسون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٣)الكنعانيون والفينيقيون

الستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٤) الحوريون، العمونيون،

المؤابيون، الأدوميون، الأنباط

الوحد والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٥)الفلستيون والحثيون

الثاني والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٦)العبرانيون والأسرائيليون

الثالث والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض(٧)من حلب إلى حوض العاصي والممالك المحيطة

الرابع والستون كتاب بعنوان من رحم الأرض (٨) من المدن الساحلية إلى ممالك الداخل